السياسة الأمريكية و الثورة المصرية

فصل معرب من كتاب مايلز كوپلاند
"لعبة الشعوب" عن طبيعة العلاقات بين الثورة
المصرية والسياسة الأمريكية .. تاريخها
وتطورها وأسرارها خلال سبعة عشر عاماً



السياسة الأمريكية

و

الثورة المصرية



مناقصة .. لبناء زعيم !

لقد كان واضحاً لنا منذ البداية ان « ناصراً ما » ، كان ضرورياً لجميع مراحل مسرحيتنا . وعندما كنا نجلس الى مكتبنا في المرحلة التي كنت ألعب فيها دوري في مصر .. كنا متفقين على ان لعبة بدون ناصر هي كقصة هملت بدون بولونيوس وعندما كنا نحاول التأليف بين مختلف القضايا الخاصة بموضوع عبد الناصر وتنظيمها، بحيث نستخلص منها درساً يمكن تطبيقه على الصعيد العالمي ، خامرنا من خلال ذلك شعور بأن ناصراً لو لم يخلق لكان على لعبتنا أن تقوم هي بخلقه ... فزعامة المنطقة وإن لم تكن قد وجدت آنئذ ، الا أن وجودها كان طبيعياً بالنسبة للعبتنا ، وكان منتظراً ان تطل برأسها فجأة عاجلاً او آجلاً .

وفي المرحلة التي كنا نحاول فيها ان ننتظر حتى نعرف ما يجب عمله، أي بين أعوام ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢، وخاصة بعد فضيحة الانهيار التي منينا بها عن طريق حسني الزعيم .. كان موظفو وزارة الخارجية ذوي الافكار اللامعة يحتفظون لأنفسهم بالخطط التي يمكن العثور عن طريقها على لاعب جديد فعّال ومؤثر ...

وكان وزير الخارجية «دين اتشيسون» ، على الرغم من تعلقه ظاهراً بالدبلوماسية التقليدية ، إلا أنه كان يعتقد سراً بأن موضوع النشاط غير التقليدي أمر يستحق الدراسة . وعلى هذا الأساس ، فقد استعار كيرميت روزفلت في عام ١٩٥١ (وهو حفيد الرئيس تيودور روزفلت) من منظمة المخابرات الاميركية ليرأس لجنة عالمية من الاختصاصيين ، كما استعار آخرين من وزارتي الخارجية والدفاع ، وجلب آخرين كمستشارين من قطاعي الأعمال التجارية والجامعات (وكان روزفلت الوحيد المنتسب للمخابرات الأميركية) .. وكانت مهمة هذه اللجنة دراسة العالم العربي ، وبصورة خاصة النزاع العربي الاسرائيلي ، وتحديد المشاكل والصعوبات وترتيبها تبعاً لأهميتها ، ثم البحث عن حلول ، سواء كانت ذات نوازع قانونية رشيدة او لم تكن كذلك ..!!

وفي خلال شهر تقريباً ، كانت هناك أفكار جديدة ، جميعها مخالف للأعراف القانونية ..!!

وفي أوائل عام ١٩٥٢ ، أنهت اللجنة تقريراً حول « لعبة الشعوب » في الشرق الأوسط ، آخذة بعين الاعتبار موقف الأعداء والأصدقاء والمحايدين ، وكذلك التجارب السابقة ، والطاقات الحالية . وكانت أهدافنا جميعها واحدة ، وكذلك كانت أهداف اللاعبين الآخرين . وهكذا استمرت العقبات ذاتها ، ولكن الظروف تغيرت كثيراً عما كانت عليه على عهد حسني الزعيم ، فقد بدأت تظهر بيننا مواهب وخبرات جديدة .

وبدأنا نشعر بالقدرة على القيام بعملية ضخمة ، كما ان ضغط الاحداث الدولية علينا كان من القوة بحيث أصبح تأجيل القيام بمثل هذا العمل غير ممكن ..

لقد كنا في حاجة الى قائد عربي تتجمع بين يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لأي زعيم عربي آخر من قبل.. سلطات تمكنه من اتخـــاذ قرار سواء رضي به الشعب أم لم يرضى . والرجل الوحيد الذي يستطيع الحصول على مثل هذه السلطة هو الشخص الذي يتطلع بشوق اليها . لقد دلت دراستنا لحسني الزعـيم على أنه كان « مجنون سلطة » ، غير أن دراسة صحيحة لسلوكه أظهرت أنه لم يكن يعشق السلطة بدرجة كافية ، أو أنــه كان يعشقها لأسباب خاطئة ، فقد كان يحب ارضاء غروره كرئيس ، وعندما كنا نقفز على قدمينا حين دخوله إلينا ونخاطبه بصفته « صاحب السعادة » لم يكن يهمه ان يظل بعد ذلك الى الأبد عميلاً أميركياً ... ولكننا كنا نريد شخصـــاً من طراز آخر يكون في تعلقه بالسلطة أقل رعونة او طيشاً ... وصح رأينا على أننا متى ساعدنا شخصاً من هذا النوع للوصول إلى السلطة ، فلن ندعي لأنفسنا بعد ذلك أي حق معنوي لاستغلال تعلقــه بالسلطة ، ولو أن في وسعنا ان نقوم بذلــك في بعض الأحيان لأسباب تاكتيكية ..

.. كنا في حاجة إلى رجل يقاسم اتباعه انتصاراته ، لذلك كان علينا ان ندرس الى جانب دراستنا لزعيم المستقبل أوضاع

اتباعه ، والطبقة الأولى التي تليها ، ثم الطبقة الأدنى ، وأخيراً طبقة القاعدة .

كان علينا ان نسلم بأنه لا أمل لأي زعيم بأن تتاح له فرصة قيادة شعبه ، ما لم يجتمع هذا الشعب على شيء يخشى ويكره.. فقد قال برتراند راسل « ان الخطر الذي يهدد الجميع هو السبيل الأسهل لتحقيق التجانس بين الجميع .. » وقد كان القادة العرب في كل مكان يستعينون بالخوف من اسرائيل ليحققوا نسبة معينة من الوحدة الوطنية ، ولذلك لم يكن أمامنا مفر من ان نستخدم الوسائل ذاتها في مصر ، مع تجنب خطر إثارة الشعور الى درجة تؤدي الى خروج الموقف من أيدينا ... وقد كان هذا الاحتمال بعيداً بسبب بشاعة الهزيمة التي نزلت بالجيش المصري في حرب عام ١٩٤٨ . وبالاضافة الى ذلك .. لم تكن أمامنا أية فرصة تتيح لنا النهوض بزعيم جديد دون ان تتاح لهذا الزعيم فرصة الافادة من موضوع النزاع العربي الاسرائيلي .

وفي أيار ١٩٥٢ ، وافق كيرميت روزفلت على رأي جيفرسون كافري ، السفير الاميركي في القاهرة ، في ان الجيش المصري وحده هو الذي يستطيع مواجهة الموقف المتدهور في مصر ، وإقامة حكم تستطيع الدول الغربية ان تتعامل معه في حدود المنطق والمعقول ...

المناخ الصالح للعمل الامريكي

في شباط ١٩٥٢ ، توصلت لجنة الاختصاصيين التي تألفت برئاسة الموظف الكبير في المخابرات الاميركية كيرميت روزفلت إلى وضع أول مشروع جدي من مشاريع « لعبة الشعوب » . وكان هذا المشروع يقوم في البدء على أساس الاعداد لثورة بيضاء يشرف فيها الملك فاروق شخصياً على تصفية النظام (البرلماني) القديم ، واحلال نظـــام آخر جديد ، مستبعداً بذلك القوى الثورية ، التي عرفت المخابرات الاميركية بوجودهـا قبل سنتين والتي أصبحت الآن على حافة الغليان .. ولكن كان مفهوماً أنه في حالة فشل هذه المحـاولة ، فلا بد من البحث عن إمكانيـات أخرى كان من بينهـا التحري عن « الشخص الواجهة » شريطة أن يكون هذا الشخص قوياً وجميلاً ، أو التنقيب عن صيغة أخرى هي مزيج من إمكانات عديدة . وقـد التحق بالمخابرات الأميركية بدافع من هواية المغامرات . وكانت آخر عملية قام بها عملية (أجاكس) في اب ١٩٥٣ وكان قد نفذهـا بمفرده تقريبًا حين تمكن من التخلص من حكم مصدق في إيران .. »

ولكن « الثورة البيضـاء » في مصر عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ التي أسندت مهمتها لروزفلت سبقت عملية (اجاكس) وكان

الملك فاروق معجباً بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية ، عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح ، للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجوه تختارها بريطانيا . وكان رأي روزفلت أن يجري الانقلاب على الحكم البرلماني وليس على الملك ، اما جيفرسون كافري ، السفير الاميركي في القاهرة ، فقد كان يعتقد بوجوب التخلص من النظام كله ملكاً وبرلماناً . وبعد عدة محاولات قام بها روزفلت بالتعاون مع فاروق كان منها قيام رجلي الحكم القويين، مرتضى المراغي وزكي عبد المتعال بخلق أزمة وزارية ، مع قيام البوليس السري في نفس الوقت بجمع الأدلة لاثبات أن المراغي وعبد المتعال هما من عملاء المخابرات المركزية الأميركية ، لاستعمالها في الوقت المناسب ضدهما ...! وكذلك تكليف نجيب الهلالي بتولي رئاسة الوزارة وقيامه بعملية تنظيف للحكومة ونفي وطرد كبار الموظفين المرتشين .. — كل هذه المحاولات لم تسفر عن نتيجة ، حتى أن روزفلت اضطر في ايار ١٩٥٢ أن يرفع يديه للسفير الأميركي في القاهرة جيفرسون كافري مستسلماً ، وموافقاً على أن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر ، وعلى إقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات من التفاهم .

... وهكذا ... لم يكن هناك أي بحث حول ثورة شعبية أو ديموقراطية ، بل كان مفهوماً منذ بداية الشوط أن الجيش المصري هو الذي سيشرف على ادارة البلاد، بعد أن يختار الوقت

والظروف التي تضمن له مساندة الواعين من سكان المدن ، أما بقية أنحاء البلاد فيمكن أن تدين بالولاء للانقلاب فيما بعد .

وقد تم الاتفاق أخيراً على أن العلاقات المقبلة بين الحكومة المصرية الجديدة ــ التي ستتألف بعد الانقلاب ــ والحكومة الاميركية ، يجب أن تقوم على أساس شعارات للاعلان فقط تقول بوجوب «عودة الحكم الديموقراطي الى مصر وقيام حكومة ممثلة للشعب تمثيلاً حقيقياً ، وعلى أن يكون مفهوماً ، بصورة ضمنية وسرية ، ان الشروط اللازمة لقيام حكم ديموقراطي في مصر لم تتوفر ، وهي لن تتوفر لسنين طويلة قادمة . ومهمة حكومة الانقلاب الجديد هي توفير هذه الشروط عن طريق اللجوء الى الأساليب التالية :

(١) إلغاء الأمية (٢) انشاء طبقة وسطى كبيرة ومستقرة (٣) أن يشعر الشعب بأن هذه هي حكومته ، وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو الاتراك أو البريطانيين ، أو الطبقة العليا في مصر (٤) ابراز بعض المثل والقيم المحلية حتى يمكن نمو منظمات ديموقراطية تكون صورة عن واقع مصر لا نسخة مستوردة من بريطانيا ولا من الولايات المتحدة . وقد اتضح لممثلي روزفلت وناصر ، ان عامة الأميركيين ، من صحفيين وموظفين وأعضاء في الكونغرس ، ومن رجال الحكم بل وحتى وزير الخارجية بالذات .. كانوا يعتقدون أن ديموقراطية مبكرة ستعود بالبلاد الى الفوضى القديمة ، فتجري الانتخابات بين

مرشحين تدعمهم أميركا وبريطانيـــا ضـد مرشحين يدعمهم السوفيات . وهناك ٢٤ مليون فلاح ، من مجموع ٢٨ مليون مصري، سيصوتون وفق التعليمات التي يتلقونها من الاقطاعيين.. أما الجماهير في المدن ، فتلجأ الى الاضطرابات كوسيلة وحيدة لممارسة النفوذ السياسي » بعد الالتحاق امـــا بالشيوعيين أو الاخوان المسلمين ، على اعتبار انهما المنفذان الوحيدان لفعاليات الشعب .

وقد اعترف ناصر لروزفلت صراحة بـأنه هو وضباطه ، وان كانوا شاعرين بمرارة الهزيمة بالنسبه لاسرائيل، الا ان النقمة الرئيسية منصبة في الدرجة الأولى على الضباط الكبار في الجيش المصري ، ثم على العرب الآخرين ثم عـــلى الانكليز ، ثم على الاسرائيليين ..! وبعد أحاديث طويلة أجراها روزفلت مـع فاروق ، توصل الأول الى نفس النتيجة التي توصل اليها عبـد الناصر ومن قبله السفير الاميركي جيفرسون كافري ...!!

وهنا نصل الى مشكلة أكثر حساسية ، هي مشكلة القومية العربية ...

قد يكون من العسير عليك بالنسبة لهـذا الموضوع بالذات ان تحصل من مصري يتمتع بمركز قيادي عسكري او مدني عما يفكر بشأن العرب والعروبة ، فمحاولتك هذه تشبه محاولة من يريد ان يحصل من نائب بريطاني على رأيه في موضوع الهجرة . غير ان المبدأ رقم واحد لكل من يخطط للانقلاب في بلد عربي

هو هـذا : فلتكن أهدافك مصرية (او سورية او عراقية او أي شيء آخر) ، ولكن إياك ان تجعل منها أهدافاً عربية ...

وعلى الرغم من كل الاحـاديث عن الاخوة العربية ، وعن « كلنا عرب » .. وغير ذلـك ، فهي كلها لا تخرج عن حدودها العاطفية الضيقة . أمـا فيما يتعلق بالشؤون العملية ، كالانقلابات ، فان الولاء هو الذي يحسب حسابه . وينطبق هذا على المصريين عـامة ، وعلى عبد الناصر بصورة خاصة . فعندما قام هذا بثورته كمصري ما لبث ان اقترب من الزعامة العربية ، وبدأت كلمة العرب تدخل في الاستعمال ..! ولم يكن عبد الناصر يعرف قبل انقلابه الكثير عن العرب ، بل ولم يكن هو نفسه عربياً . . كما أنه لم يزر أياً من البلاد العربية ولا التقى بأي شعب عربي ..! والقليل الذي كان يعرفـه عن العرب لم يحرك محبته لهم. وفي عام ١٩٥٢ قام بزيارة بعض البلدان العربية، ولكن في ظروف لم تكن جديرة بأن تعلمه الشيء الكثير عن هذه البلدان . ولم تفعل هذه الزيارات شيئاً سوى أنها أكدت شكوكه السابقة بالعرب ... فالعراقيون في نظره متوحشون ـ !.. ـ ، واللبنانيون مرتشون ومنحلون ـ !.. ـ ، والسعوديون قذرون ـ !.. ـ ، واليمنيون أغبياء متخلفون ـ !.. ـ والسوريون غشاشون ، لا هم يشعرون بالمسؤولية ولا هم موثوقون ..! ـ .

ويجب أن أؤكد هنا ان ناصر ينكر الآن انه كانت له مواقف من هذا النوع (ولا يمكن أن يتوقع أحد اعترافه بهـا). واعتقد

انه قد توصل الآن الى أن في العالم شيئاً اسمه « العالم العربي » ، وان هناك طبقة من السوريين واللبنانيين والعراقيين والأردنيين والليبيين .. تهتف له بحراره كلما ظهر على شاشة التلفزيون . كما يجب أن أؤكد هنا أيضاً ان معاونيه الذين ساعـدوه على القيام بالثورة ، والذين يعود اليهم – الى حد ما – فضل بقائـه في السلطة ، لا يشاركونه نشاطه العربي وهم يسايرونه في مواقفه العربية ضمن الأبعاد التي تخدم الأغراض المصرية الخالصة .. وكلما وقعت في مصر مشاكل داخلية أصبح عبد الناصر على الفور أكثر تعصباً لمصريته ، وأقل حماساً لعروبته .

وعندما يدخل في مباحثات سريه استراتيجية مـع أقرب مستشاريه إليه يتحدث عما هو في صالح مصر ، معتبراً ما ينفع العرب عامة ثانوياً أو صغيراً .

هذه النقاط مضاف اليها عـدم الاهتمام بموضوع استعادة فلسطين ، وعدم علاقة القومية العربية بالثورة المصرية ، تستحق أن تذكر بسبب ما علق بها من سوء فهم ، وما أدت اليه مـن أخطاء كثيرة ارتكبناها في تعاملنا مع عبد الناصر : والحقيقة الأساسية التي استخلصها كيرميت روزفلت من أحاديثه مـع ضباط عبـد الناصر هي كراهيتهم لمركز الانكليز في مصر ... الانكليز الذين قال عنهم عبد الناصر انهم « أخذوا يشعروننا في بلادنا اننا مواطنون من الدرجة الثانية ... » .

وفي كل الأحاديث التي دارت بين الضباط الأحرار مـع

كيرميت روزفلت (عميل المخابرات الأميركية) قبل شهرين من انقلاب عام ١٩٥٢ ، كان هذا الموضوع ، موضوع السخط على بريطانيا ، هو الوحيد الذي دار حوله البحث ..!

وعندما عاد روزفلت الى واشنطن قبل شهرين من الانقلاب ، قدم الى وزير الخارجية الاميركية دين أتشيسون تقريراً، وردت فيه النقاط التالية :

١ ــ ان الثورة الشعبية التي كانت وزارة الخارجية الاميركية تخشاها ، والتي كان يسعى اليها الشيوعيون والاخوان المسلمون، لم تعد ذات موضوع .

٢ ــ لم يعد هناك أي احتمال يحول دون وقوع ما يرجوه مخططونا في وزارة الخارجية ، وأن الجيش سيقوم بانقلابه القريب ... سواء أردنا ذلك أو لم نرد » .

٣ ــ ان الضباط الذين يرجح أن يقودوا الانقلاب ستكون لهم مبرراتهم القوية ، وسيزيد ذلك من حظهم في النجاح ، وسيجعل منهم مفاوضين مرنين عندما يحتلون مراكز السلطة .

٤ ــ على الحكومة الاميركية أن توافق على اقصاء الملك فاروق ، وربما على نهاية الملكية في مصر ... ولكن ليس هناك ما يمنع ارسال احتجاج رقيق، يتيح للسفير كافري اظهار بعض القلق على سلامة الملك فاروق ..

٥ ــ على حكومتنا أن تحجم بعد الانقلاب عن القيام بأية

محاولة لاقناع العسكريين باجراء انتخابات أو إقامة حكومة دستورية وما الى ذلك . ويجب أن تقيم علاقتها مع العهد الجديد على أساس ان الحياة الديمقراطية يجب أن يعاد بناؤها من نقطة الصفر .

٦ – على الرغم من كل الاجتماعات التآمرية التي سبقت الانقلاب ، فلا يجوز لأحد من رجال حكومتنا أن يقوم في تفكيره ان الانقلاب هو انقلابنا (..!) والانقلاب سيكون قضية داخلية بحتة ، وهو – الى حد ما – متحرر من نفوذنا . أما الحاجة الى عدو يجتمع على كراهيته الجميع (وفقاً لمبدأ برتراند رسل) فلن يكون هذا العدو اسرائيل ... بل الطبقة الأولى في داخل مصر ... وكذلك الانكليز – سواء كنا راغبين في ذلك أو غير راغبين – ..

اللاعب الجديد .. وشروط التمثيل الامريكية

التقرير الذي رفعه كيرميت روزفلت الى مجلس الكونغرس عن نشاطه في مصر ، كتب بطريقة لا تثير الذعر بين أعضاء لجنة الأبحاث التابعة للمجلس المذكور .. لذلك لم يشتمل التقرير على شرح واضح للجهود التي بذلناها حتى أمكن اللقاء بزعيم متعطش للسلطة ، بونابرتي الطراز ، وذى قدرة على ان يجمع شعبه حول قضية تتوحد بها الآمال والمخاوف .. ! أما تقارير روزفلت الشفهية ، فقد اتسمت بصراحة أكثر قليلاً ، إذ قال لمرؤوسيه إن أي شخص يتملكه حب السلطة ، فانه لا ينتظر الدبلوماسيين السريين الاميركيين لتحريضه وإلهاب حماسه .. ولكن استنتاجاً واحداً يمكن استخلاصه بأمان من اجتماعاته في القاهرة . وهذا الاستنتاج هو ان : « أحدهم ! » في مصر ، من ذوي الاتصال الوثيق بالضباط الذين اجتمع اليهم قد وضع في حوزته ما يقتضي عمله للاستيلاء على السلطة في مصر ، والبقاء فيها . وأضاف روزفلت ان كل ما يرجوه هو ان تتم الخطة ، وانه – أي روزفلت – قد أبلغ ملاحظاته لـ «أحدهم» ! المشار اليه ، حتى يمكن العمل من أجل تفاهم متبادل حين يحين الوقت

المناسب . ومن الثابت ان « أحدهم » ! هذا سيفهم ما نريد ، كما سيفهم اننا على استعداد لان ندفع من أجل ما نريد . وأنهى روزفلت تقريره الشفهي بـأن المعلومات التي جمعهـا من الضباط الذين اجتمع بهم ، تسمح له بالتأكيد ان عرضه قـد قبل . . !!

وهكذا . . . علمت حكومتنا بالانقلاب العملي عندما قرأت في الصحف يوم حدوثه في ٢٣ تموز ١٩٥٢ ، وذلك بعد موجة من تقارير الـ C. I. A. التي أشارت الى ان شيئاً سيحدث ، ولكن هذه التقارير عجزت عن تحـديد الوقت وتعيين التحركات . وكانت جميع الصحف مؤيدة للانقلاب الأبيض الذي كان مقبولاً من الشعب المصري . ولم يكن هنـاك أسف على ذهاب الملك الخليع ، كما لم تكن هنـاك بلاغات رنانة او مثيرة كتلك التي تعقب الانقلابات في سورية . . بل كانت هنـاك وعود بتطهير البلاد من الفساد ، وإقامة حكم قادر وفعّال ، واصلاح الاحزاب السياسية . . وغير ذلك . . ولكن كل البلاغات لم تـأت ، ولو بكلمة واحدة ، على ذكر اسرائيل .

واذا كانت السفارة الاميركية في القاهرة لم تطلع على أخبار الانقلاب في حينها ، فلا يعود ذلك الى تقصير من عبد الناصر ، بل لان السفارة كانت مغلقة في الليل . غير ان علي صبري – الذي أصبح فيما بعد من أشد أخصام الاميركيين – قدم الى

كافري تقريراً شاملاً عما حدث قبل ليلة واحدة من الانقلاب ، مع تأكيدات بأن الحكومة الجديدة ترغب في علاقات ودية مع الولايات المتحدة . وقد تلت ذلـــك تأكيدات علنية من محمد نجيب ، الذي كان يعتبر أباً للانقلاب . فقد أرسل الينا يقول : (ان قضية فلسطين لا تعنيه في شيء) . ولكنه زار السفير كافري بعد ساعات طالباً سحب بيـــانه هذا واستبداله بشيء آخر ، أقل ملاءمة للاستهلاك المحلي في الولايات المتحدة، وأكثر انسجاماً مع الأسس التي كنا نوافق عبد الناصر على انها ضرورية لكي ينال العهد الجديد رضى الرأي العام المصري .

وكان كل شيء يشير الى انه قد أصبح في حوزتنا على المسرح لاعب جديد ، تنطبق صفاته على كل ما كنا نسعى اليه ، وان اللعبة التي سنقوم بها معه ستحظى بنسبة عالية من التعاون ، ونسبة ضئيلة من الخلاف... أما الادارة الاميركية في واشنطن، فقد غمرتها موجة من السرور (...!)

وكان وليم ليكلاند ، ضابط الارتباط السياسي في السفارة الاميركية ، يعرف ان محمد نجيب كان واجهة لعبد الناصر ، وكان حسنين هيكل هو الذي قام – قبل الانقلاب – بتحقيق اللقاءات بين ليكلاند والضباط الأحرار ، وكان بينهم عبد الناصر، وفي الأشهر التي أعقبت الانقلاب كان ليكلاند يستقبلهم في شقته المشرفة على نهر النيل ... وبينما كانت الجماهير المصرية ،

والعالم الخارجي يهتف لنجيب، كانت السفارة الاميركية تتعامل، من خلال ليكلاند ، مع عبد الناصر كرجل قادر على اتخـــاذ القرارات .

وكان السفير الاميركي كافري يقوم بين حين وآخر بزيارة محمد نجيب ، لأسباب روتينية ، وكان يسلمه الرسائل التي كانت واشنطون لا تخشى ضياعها على الطريق ... ! أما العمل الحقيقي بين الحكومتين الاميركية والمصرية ، فقد كان يدار من خــلال ليكلاند وناصر ، او بالاحرى من خــلال ليكلاند وهيكل . وكان الأخير يتسلل بالتدرج الى قنـــاة الاتصالات بيننا وبين ناصر ، لأنه كان قادراً على ان يطلي بالحلوى وجهات نظر عبد الناصر ، قبل ان ينقلها الى السفارة الاميركية ، كما كان يفعـل مثـل ذلك عند نقل وجهـــات نظر السفارة الى عبد الناصر ... !!

وبعد الانقلاب ، أمسك روزفلت ، وأعضاء لجنته الخاصة ، عن الاتصال المباشر بعبد الناصر، وكانوا راضين بمراقبة تطورات الأحداث في مصر من بعيد ، وذلك لسببين . أولها : استبعاد شبهة التواطؤ مع النظام الجديد ، وثانيهما : ان الأمور كانت تتطور بهدوء وفق الخطة المرسومة . وكان جميع الذين يهتمون بشؤون المنطقة راغبين في ان تترك الفرصة لحكومة الانقلاب كي تحل مشاكل البلاد بطريقتها الخاصة . كما كانوا لا يرون أي سبب

يبرر الكشف عن القوى الحقيقية التي كانت متسترة وراء واجهة محمد نجيب .

ولكن هذا الوضع تغير على عهد الرئيس أيزنهاور ، فقد كانت رغبة الرئيس الجديد هي ان ندرس هذا اللاعب الجديد بدقة حتى نتأكد من أنه يتحرك وفقاً لتوقعاتنا ، وأن تحركاته تؤمن لنا استراتيجية الظفر على أخصامنا عندما نكون معهم في صراع ... وأخيراً ، حتى نجعل من اللعبة كلها لعبة تعاون بقدر الامكان .

أفراد عصابة « روبن هود »

بعد ان أبدى الرئيس ايزنهاور رغبتــه في دراسة أوضاع « اللاعب » الجديد دراسة دقيقة ، وبمناسبة سفر وزير الخارجية جان فوستر دالس الى الشرق الأوسط في أيار ١٩٥٣ ، صرح الأخير ان الوقت قد حان « لمعرفة ما يريده هؤلاء الأولاد وما يذهبون اليــه » . وأمر كيرميت روزفلت بأن يرسل للقاهرة شخصية عسكرية من نوعيـــة رجال الثورة لتقييمهم ودراسة أوضاعهم . وقد وقــع اختيار روزفلت على « ستيفن ميد » ، الذي انتزع من زاوية النسيان ، حيث كان يقوم بمهمات ثانوية كنجدة العلماء الألمان المعتقلين من قبل الصين الشيوعية . أو التواطؤ مع قادة العشائر الكردية على الحدود السوفيتية لأغراض ذات علاقة بالأسرار الحربية واستخدام عهد الظلام الذي أقمناه في سورية ، كما ورد في الفصل الثاني . وكان روزفلت ، بسبب عدم خبرته بشؤون الضباط في الجيوش العربية الحديثة ، يعتقد أن ماضي « ستيفن ميد » المليء بالمغامرات سيعكس انطباعــاً حسناً على « الضباط الأحرار » ، وقد كان ، الى حــــد ما ، مصيباً في رأيه هذا. ذلك ان الأسابيع التي قضاها ميد في مصر ، قبل زيارة دالس ، دلت على أنه حاز القبول من قبــل الضباط

المشار اليهم ، لأن في مظهره صفة البطل الذي تعرضه الأفـلام الأميركية . والحقيقة ان ميد كان في صفاته يشبه أحد المظليين العاديين المتصفين بالتواضع. وقد دخل جهاز المخابرات الأميركية نتيجة خطأ ارتكبه الجهاز الألكتروني ، الذي قضى بفرزه الى المخابرات مـع احتمال نزوله بمظلة على الأرض السوفيتية ، وذلك بدلاً من ارساله الى جبهة القتال . وكانت مقدرته الخارقة تقتصر على سهولة تعلمه اللغات الصعبة التي كان من بينها العربية . وكان سلوكه مشابهاً لسلوك الضباط في أي جيش ، بما في ذلك الجيش المصري . وقد ساعـد ماضيه الحافل بالمغامرات على دخوله في محادثات شيقة مع الضباط المصريين في اجتماعاتهم الليلية . ولكن هذا الاختيار أثار عبد الناصر، حتى انه رأى في تعيين ستيفن ميد لهذه المهمة ان وزير الخارجية الاميركية يرى ان ثورته لا تختلف عن الانقلابات التي تجري في أميركا الجنوبية .

أما من وجهة نظر الحكومة الأميركية ، فان ميد كان يمتاز بقدرته الخارقة على معرفـة الناس ، وتحليل دوافعهم وأغراضهم ، دون أن يتدخل في سياساتهم . وعلى الرغم مـن صداقته مع ضباط كثيرين في بلدان أخرى « بمـن فيهم أديب الشيشكلي في سورية » ، فلم يثر شكوكاً خطيرة حول احتمال قيامه بأية محاولة للتأثير في مجرى الثورة المصرية . كما انه لم يقم بمثل هذه المحاولة مطلقاً . ولكن ستيفن ميـد سجل عن « الضباط الأحرار » ملاحظات مـا لبث ان أثبت التاريخ

صحتها ، وانها لا تنطبق فقط على نخبة عبد الناصر المختارة ، بل على أية نخبة عسكرية في بلدان غير غربية ، بما في ذلك فيتنام وأفريقيا الغربية واليونان .

وقد قال روزفلت مرة لوزير الخارجية دالس ، بينما كان يتحدث عن هذه البلدان بصفة عامة : « نحن لا نستطيع أن نصنع ثورة بدون ثوار » . أو كما قال بيان كروزيه : « الناس لا يثورون بسبب أحوالهم المعاشية ، ولكن الثورة هي التي تولد الثورة » . أما ميد فانه بعد أسابيع من نشاط اجتماعي مع الضباط المصريين ، أخذ يعتقد العكس . ففي رأيه ان الانقلابات في سورية فشلت ، أو ان انقلابات كثيرة أعقبتها ، لأن الثوار في سورية كانوا أكثر من اللازم . أما الانقلاب في مصر فقد استمر ، لأن اخراجه كان نتيجة لجهود عبد الناصر وسلوكه ، ولأنه كان واضحاً ان أتباعه كانوا ينقادون له بسهولة . وقد كتب ميد الى روزفلت يقول : «ان هؤلاء الصبيان يرون أنفسهم كأفراد عصابة « روبن هود » المرحة ، وهم فرحين بأنهم أعلنوا أبطالاً للثورة ، ولكنني لم أجد واحداً منهم قادراً على أن يشرح لي ما تريده هذه الثورة ، فهم لا يكترثون للسياسة ، ولعل هذا من حظنا وحظ عبد الناصر معاً . إنهم في حاجة الى من يقول لهم ماذا وكيف يفكرون ويعملون ، وليست هناك أية صعوبة في العودة بهم الى الثكنات . .

على ان ميد مر ببعض الأوقات القلقة . فبعد ثلاثة أو أربعة أيام من وصوله الى القاهرة ، حاول « الضباط الأحرار » أن

يحصلوا على مساعدته لأقناع عبد الناصر بأن ينصب أمام قصر عابدين صفاً من المشانق مع سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين وذلك لتنفيذ أحكام الاعدام بأعداء الثورة . وقد وضع ناصر حداً لهذا المشروع الغريب بمجرد قوله : « لا أريد أن أسمع هذا الموضوع مرة أخرى » . غير ان الضباط استمروا في ترديد ذلك بين بعضهم بعضاً ، الى أن تسرب مشروعهم الى الرأي العام . وقد حدثت أمثلة عديدة لهذا الحادث ، حتى ان بعض المراقبين كانوا يعتقدون بأن الموقف قد يفلت من يد عبد الناصر فتتحول مصر الى سورية ثانية ، وكان هذا أيضاً رأي ميد في البداية ، ولكنه ما لبث ان اعتقد بأن هذه الحوادث طبيعية بالنسبة للمرحلة الأولى التي تلي الانقلابات ، وهي لا تدعو الى القلق ، بل يمكن تشبيهها بما حدث للجيش الفرنسي عندما غادر الألمان فرنسا .

جميع الضباط الذين اختارهم عبد الناصر للقيام بعملية الانقلاب ، كانوا جديين وذوي مراكز حساسة ، ولذلك فان انقلابه لم يحدث اضطراباً في أنظمة الجيش ، ولكنه على العكس عزز هذه الأنظمة . ومؤامرته التي سبقت الانقلاب لم تستهدف إنشاء قوة ثورية ليستولي بها على السلطة ، بل اتاحة الفرصة لضباطه الذين هم في المراكز الحساسة للاستيلاء على السلطة ، عن طريق اصدار الأوامر من خلال المنظمات الادارية العادية . ولعل الصعوبة الوحيدة كانت في أنه لم يستطع أن يضع نفسه في المكان المناسب عند وقوع الانقلاب ، وذلك بسبب رتبته

العسكرية . غير ان استخدامه لمحمد نجيب حلّ هذه المشكلة .

وقد شرح عبد الناصر شخصياً للجنرال « كابل » ، الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس في الـ C. I. A. كيف ان عملية الانقلاب انتابتها بعض المضاعفات، ذلك ان واحداً من الضباط المعنيين لم يستطع الاستيلاء على مراكز المواصلات ، لأنه عندما وصله التكليف بذلك كان يشاهد مع زوجته فيلماً سينمائياً . كما أن شرطياً أوقف سيارة عبد الناصر بسبب خطأ في الانارة بينما كان في طريقه الى موعد هام . وقد تسربت بعض أنباء الحركة الانقلابية الى الملك فاروق لأن واحـداً من ضباط الأمن شعرت أمه بمغادرته الدار في ساعة متأخرة من الليل وبطريقة تدعو الى الريبة ، فاتصلت بالشرطة خشية أن يكون ابنهـا قد تعرض لحادث معين . الخ ..

وكذلك شرح عبد الناصر مطولاً للجنرال « كابل » آراءه في الطرق التي يجب اتباعها لنجاح الانقلاب العسكري والطرق التي يجب اتباعها لحمايته .

وبعد الانقلاب ، كان أتباع عبد الناصر يعرفون « برجال زكريا » او « رجال البغدادي » أو غيرهما، أي إن ولاءهم لعبد الناصر كان عن طريق ولائهم لأحد هؤلاء الاشخاص . وقد كان على عبد الناصر أن يلغي ذلك ، ولو أنه فعله بطريقة لم تؤد الى اقصاء أعوانه الرئيسيين . وبعض أعوانه كان لا بد منهم في تنفيذ الانقلاب ، ثم أصبحوا ولا نفع لهم بعد ذلك . وقد وضع

هؤلاء في وظائف لا يقومون فيها بأي عمل . أمـا آخرون ممن من كانت لهم مواهب ، وكان عبد الناصر يثق بهم ، فقد وضعوا في مراكز كانت تشغل كل أوقاتهم . أما الذين كانوا يدينون لهؤلاء بالولاء الشخصي ، فقد أبعدوا الى مراكز ثانية . وكان ستيفن ميد قد طلب من حسني الزعيم أن يفعل مثل ذلك ولكن دون جدوى . ولذلك فهو يعتقد أن الفن الناصري في هـذا الموضوع يجب أن يكون الأساس في التخطيـط للانقـلاب الناجح .

وفي سورية ، حيث ينظر الى الانقلاب كعمل فني ، عرف ميد كيف أتى الزعيم الى السلطة عن طريق انقلاب نفذ تنفيذاً دقيقاً ، ثم قام بعد ذلك بكل الأخطاء التي أمكنه القيام بها . أما في مصر فقد شاهد ميد كيف ينجح ناصر بالانقلاب ثم يؤلف حكومة جديدة تتصف بالمناعة ضد الانقلابات . والسبب هو أن عبد الناصر يعتقد أن توطيد مركزه يجب أن يوضع في الاعتبار الأول ، وأن يقدم على أي هدف آخر . وكان سعيه وراء هذا الهدف يضطره إلى القيام بأعمال كانت تزعج المراقبين الغربيين ، مثال ذلك أنه سمح لموقف بأن يسيء للعلاقـات بين مصر والسودان لمجرد أن هذا الموقف مكنه من إيقاع المسؤولية على أتباعه ، وكان يتزايد نفوذه الى درجة اعتبرها خطيرة عليه . ويرى ميد ، مع ذلك ، ان سلوكاً من هذا النوع كان ضرورياً بالنسبة إليه ، وان مثل هذه التصرفات يجب أن لا تزعجنـا كأميركيين ... !

أما وجهات نظر عبد الناصر في المجتمع الذي كان يريده عن طريق الانقلاب فتقتصر على ما كان يسميه « بالنخبة الطبيعية ». وقد كانت وجهات النظر هذه ترد الى حكومتنا ، عن طريق هيكل ـ ليكلاند ، لا عن طريق ستيفن ميد . كان هذا يزعج مخططينا . و « النخبة الطبيعية » كما يراها عبد الناصر هي التي تتمتع في البلاد بنفوذ وامتيازات ، بسبب كفاءاتها العالمية . ولأن الشعب يعتقد بأنها تمثله ، او انهـا تخصه .. وهو يرى أن جميع البلدان والمجتمعات المستقرة والمزدهرة . بمـا فيها الاتحاد السوفييتي ، تقوم فيها نخبة من هذا النوع . وهذا ما كان يتطلع إليه عبد الناصر ، ولكنه كان في الوقت نفسه يشك في قدرة شعبه على تقييم الكفاءات وعلى تقرير مـــا يمثل الشعب تمثيلاً حقيقياً. ولهذا السبب بدأت تراوده فكرة « النخبة العسكرية » على الرغم من قناعته بأن الجيش يجب أن ينفصل عن السياسة . وقـد وجدنا أن نمو هذه الفكرة عند عبد الناصر مزعجة ، لا لأنها تبعد لعبته عن مسرحيتنا (بل هي على العكس قد تقربه منها) بل بسبب الصعوبات التي قد تخلقها على الجبهة الاميركية . فقد سبق لادارة أيزنهاور ان اتهمت بأنها نصيرة الديكتاتوريات اليمينية ، لأننـــا في بعض الأحيان تسامحنـا في قيام هذه الديكتاتوريات لمصلحة النظام والقانون ، ولكننا لم نفعل ذلك إلا بعد أن ظهرت لنـــا رغبات حقيقية في العودة الى الحكم البرلماني متى تم توطيد النظام والقانون ..

ضدّ الحرية

... وأخيراً فان أكثر ما كان يزعجنا هو تردد عبد الناصر في البناء الاجتماعي الذي كان يرجوه لمصر ، وقد كان يطلب ان يمنح وقتاً للتفكير بذلك . كما كان يريد ان يمنح الشعب المصري هذا الوقت ، بمعنى تطوير القدرة على التفكير البناء عند المصريين حول حقيقة ما يريدون . وقد قال مرة للسفير الاميركي كافري: « إنك اذا أعطيتهم الحرية بسرعة تكون كمن ترك الأطفال الصغار لأخطار الشارع » . وكان يعتقد ان البلاد اذا منحت حرية على الطراز الغربي فستتحول الى ساحة قتال يتصارع عليها المتعصبون والمرتزقة . وبالاختصار ، فقد كان عبد الناصر يريد فترة طويلة يتمتع فيها بأقصى ما يمكن من الحرية دون ان يزعجه الرأي العام . وهذا يعني انه كان يتطلع الى نظام اجتماعي تسوده فئة مختارة على رأسها فئة أعلى متفوقة ، على أساس تحقيق التماسك بين أفراد هذه الفئة عن طريق الوعود من جهة ، والمداهنة والتملق من جهة أخرى .

وهذه الاعتبارات كلها لم تزعج ستيفن ميد، الخبير بالشروط اللازمة لاستمرار الانقلابات . وعندما كتب هذا تقريراً الى

رؤسائه ذكر فيه ان تغيير عبد الناصر لأركان القيادة يرمي لإقامة ديكتاتورية فاشستية عسكرية ، اتخذ كيرميت روزفلت مع السفير كافري الترتيبات اللازمة لاستدعاء أحد رجال الدولة الاميركية ، ويدعى « ايخلبرغر » ، وهو اختصاصي بالعلوم السياسية وله تقارير رسمية مؤثرة عن الانظمة العسكرية في البلدان المختلفة . واقترح كيرميت روزفلت منح مساعدات اقتصادية لمصر ، كما كان على وشك المطالبة بمساعدات عسكرية ، وكان يعتقد ان دراسة الموقف من قبل « ايخلبرغر » ستمكنه من الاستناد الى قاعدة يبرر فيها سياسة ناصر لوزير الخارجية دالس او لاقناع ناصر بتعديلها . وقد قام كافري بتكليف « ايخلبرغر » ليعمل مباشرة تحت إمرته في معزل عن جهاز السفارة ولو انه مهد له السبيل للاطلاع على المعلومات الواردة من وزاة الخارجية وملحقي السفارة وموظفي الـ C. I. A. وكان على « ايخلبرغر » ان يتوصل الى توصيات لبرنامج العمل ، على الرغم من ان كافري كانت له الكلمة الأخيرة ، كما كان وراء كل كلمة أرسلت الى واشنطن ، سواء جرى الارسال الى وزارة الخارجية او الى الـ C. I. A. او الى بعض الافراد من رجال الادارة او رجال C. I. A بمن فيهم كيرميت روزفلت .

وقد عقد «ايخلبرغر» محادثات طويلة مع أعوان عبد الناصر السياسيين والعسكريين ، بمن فيهم محمد حسنين هيكل المراسل الصحفي الذي كان ، كما قيل لنا، وراء كتاب «فلسفة الثورة»،

وكان يضع تقييماً صحيحاً لما هو فلسفة حقيقية وما هو للاستهلاك المحلي ، وتحدث كذلك الى رئيس هيكل آنئذ مصطفى أمين ، وهو صحفي ذكي ، وكان من المعجبين بعبد الناصر ، غير أن هيكل كان أكثر إعجاباً به . وتحدث كذلك الى صلاح سالم وزير الارشاد القومي آنئذ ، والى كثير من الناس الذي عينهم سالم في وزارته ، وجاء بهم من الجامعات ومن الاتحادات العمالية وحتى من الاحزاب السياسية .. وأخيراً ، فقد تحدث ايخلبرغر الى ناصر نفسه حول سلسلة طويلة من المواضيع ، وحصل على فكرة عن الابعاد التي كان يرى فيها عبد الناصر القوى السياسية التي كانت تعمل تحت إمرته . وكانت النتيجة سلسلة من التقارير بعضها ترجم الى العربية وقدم الى ناصر ، وهو يشتمل على ما كان يراه ايخلبرغر من مصاعب تواجه الحكومة ، وما ينصح في اللجوء اليه لتذليلها .

وكان أهم هذه التقارير تقريراً عن « مشاكل السلطة في الحكومة الثورية » ، وقد ترجم الى العربية وأضيفت اليه تعليقات من أعضاء يعملون في مكتب عبد الناصر ، ثم أعيدت ترجمته الى الانكليزية كي يضع عليه ايخلبرغر مطالعته الاخيرة. وهكذا من الانكليزية الى العربية ومن العربية الى الانكليزية .. حتى أمكن الوصول الى الصيغة النهائية . وقد عرضت هذه الصيغة على العالم الخارجي على أساس انها من صنع زكريا محي الدين وهو من أحسن رجال عبد الناصر تفكيراً. ومهما قيل

عن قيمه هذا التقرير الفلسفية فهو يشير على كل حال الى الطريقة التي كان ينظر بها ناصر الى العلاقة بين « أعمـال القمع والتأييد الشعبي » . والتقرير من هذه الناحية ذو أهمية لا تقدر ..

وقد طلب كافري من ايخلبرغر ان تكون مراقبته لمسرح السياسة المصري مجدية لرجال الثورة ، وذلك لأنه كان يشك في تأكيدات ستيفن ميد بأن حكومة عبد الناصر لا يمكن ان تتعرض لخطر الانقلاب ، بل كان على العكس يعتقد انه بعـد سنة من الانقلاب سيكون أقصى وقت تتعرض فيه الثورة لخطر الثورة المضادة ، وذلك من قبـل أفراد كانت لهم مصالح في النظام السياسي القديم ، او تعرضوا لاضطهاد النظام الجديد ، ومن الشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد ناصر ولكنهم كانوا يتطلعون الى فرصة يستغلونها لتحقيق أهدافهم ..

ومن الاخطار التي كانت تهدد نظام عبد الناصر .. الشعبية التي كان يسعى اليها ضباطه .. وقد ورد في التقرير الذي كتبه ايخلبرغر ما يلي :

(ان ناصر نفسه هو شخصية غير واضحة . وعندما اتحدث الى الأخوين صلاح وجمـال سالم والى آخرين غيرهما من ضباط « مجلس الثورة » ، ينعكس في نفسي انطباع لا أستطيع تحديده تماماً ، ولكنه يدل على انهم يباشرون سياسة الانجراف والمخاطرة ، وهم لا يشعرون انهم استطاعوا ان يسيطروا على أجهزة الحكومة ، كما ليست لهم ثقة بقدرتهم على القمع ، ذلك ان ما يريدونه هو

الشعبية ، وما يفكرون بعمله ليربحوا هذه الشعبية يثير أزمة نفسية دائمة في إدارة شؤون الحكم) .

وهنا انتقل ايخلبرغر الى التخصيص ، فقال :

(اذا حاول صاحب السلطة ان يجرب سلطته ، عن طريق ارضاء فئة حيناً وأخرى حيناً آخر ، فان النتيجة هي ان الاهداف الاساسية ستوضع جانباً وسيترك جانب التقدم ليبحث عن طريقه بنفسه. ولن يمضي وقت طويل قبل ان يتضح للجميع انهم قد أصبحوا في حالة افلاس فكري ، وان انجرافاً او مخاطرة جديدة لم تعد في قيد الامكان . وعند ذلك يعودون الى سلطة القمع التي يتحدث عنها عبد الناصر كثيراً. وهنا ينتصب أمامنا طغيان بشع) .

لكن ايخلبرغر كان لا يقدر ناصر حق قدره ، فناصر كان يعرف جيداً الطبيعة المراوغة للشعبية المجردة ، ولذلك لم تكن لديه الرغبة في السعي وراءها ما لم يستند الى سلطة أساسية تقوم على حمايته . ومن خلال السنين ، شعر بالحاجة الى الاضطهاد حتى في الاوقات التي بلغت فيها شعبيته الذروة . وفي أواخر ايار ١٩٦٧ ، اعترف عبد الناصر لأحد الدبلوماسيين الأجانب قائلاً : « اننا نستطيع ان نحكم هذه البلاد بالطريقة التي يحكم بها «بابا دوفاليه» جزيرة هايتي ، اذا اضطررنا الى ذلك . ولكننا نعتقد ان الأمور لن تتطور بنا الى هذا الحد .

والخطر لم يأت في الدرجة الأولى من ان ناصراً كان يشك

في ما يريد انجازه بقدر ما كان يأتي تردده في كيفية الانجاز .
والذين كانوا يراقبون عبد الناصر ما كانوا يرون بوضوح أنه لن يبتعد عن الديكتاتورية العسكرية الى الحكم البرلماني ، وأنه سيتجاوز هذه الخطوة عن طريق الادعاء بها ليحكم كبونابرت بتفويض من الشعب ، يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو غير ذلك ..

أما فيما يتعلق بنا ، فكل ما كنا نريده هو أن يلتقي « اللاعب » الذي أردناه بالخصائص التي حددناها ولذلك فان ما كان يفعله ناصر على صعيد السياسة الداخلية ، كان من شأنه هو ، طالما كانت لعبته لا تعرض مصالحنا للخطر. فمهما كانت أهدافه الحقيقية ، بونبارتية أو غير ذلك.. فمن الممكن الدفاع عن ناصر على الشكل التالي : في الفترة التي كان يوطد فيها مركزه ، كان موقفه من أصدقائه الأميركيين : (إذا كنتم لا تحبون الطريقة التي أعمل على أساسها ، أروني طريقة أخرى .. فسأصغي اليكم ..) ونحن لم نحاول في أية مرة أن نختبر اخلاصه لنا ، لأنه كان يتصرف على طول الخط بطريقة لم يكن يمتد تفكيرنا الى ما هو أفضل منها .. (..!!) .

توطئة .. لعقد صلح مع اسرائيل

كثيرون كانوا يسألونني على مر السنين : « لو فرض ان عبد الناصر اصبح تجاه ظروف تفرض عليه إما ضياع السلطة واما انجراف بلاده في طريق الانهيار ، لمجرد الحفاظ على بقائه ، فأي الطريقين يختار ؟ » . جوابي على هذا السؤال : انك عندما تتعاطى العمل مع أي قائد محب للسلطة من أجل السلطة ذاتها ، وهذا ما يدور في خلدنا بالنسبة لعبد الناصر ، فيجب أن تفترض ان في وسعه أن يفعل كل شيء للبقاء في السلطة ، حتى ولو كان هذا البقاء يعني تدهور البلاد في طريق الانهيار الاقتصادي ، أو الدخول في معركة مستمرة وخاسرة مع الاسرائيليين . وهذا الافتراض يكون أقرب الى الواقع ، اذا كانت طبيعة القيادة بونابرتية الطراز وإذا كان القائد يرى ، أو يظن انه يرى ، بأن أسوأ الكوارث لن تكسر هيمنته على الشعب ، كأن تتيح لفئة معادية اغتصاب الحكم منه . وقد كانت حرب ١٩٦٧ أصدق دليل على ذلك ، إذ لم تنزل بمصر كارثة كهذه الكارثة ، ولم تسنح الفرصة لأعداء عبد الناصر كما سنحت في ذلك الحين ، ولكنه على الرغم من ذلك ، خرج منها أقوى من أي يوم مضى .

يحدد « روبرت ميشلز » ، في كتابتـــه عن البونابرتية ، التحولات النفسية التي يمر بها قادة كعبد الناصر ، فيقول أن هؤلاء ، بسبب ما تتسع لهم قبضاتهم مـــن سلطات ، يزداد شعورهم بقيمتهم الشخصية ، كما يذهبون بعيداً جـداً في تصور حاجة الجماهير الى قيادتهم . وهكذا تقوم في أذهانهـم صورة خارقـــة عن تفوقهم ... والحقيقة أن كل من يمارس السلطة سيسعى جهده لتوطيدها وتوسيع إطارها وزيادة الحواجز التي تحمي كيانها ، والابتعاد بنفسه ، ما استطاع ، عن رقابـــة الجماهير . وقد استطعت بمرور السنين أن أرى عبد الناصر من جوانب لم يستطع أي رجل غربي أن يراه منها حتى الآن ، وعلى الرغم من أنه لم يعد في قيد الاحتمال أن أهبط عليه فجأة وبدون سابق انذار لأتناول معه طعام الغداء ، فانني لا أزال أدخل معه في نقاش طويل كل شهر أو شهرين وفي ظروف من الاسترخاء يصبح فيها أقرب ما يكون الى نفسه . وبعض الأحيان ، كان هدفي من الدخول معه في هذه المناقشات مجرد صلة صداقة اجتماعية ، وأحياناً أخرى لأنجز مهمة كلف بها أحد رفاقي ، وفي أحيان كنت أزوّد حتى طبيب الأسنان بنقاط للبحث والتنقيب تفرض من قبل طبيب من الـ C. I. A. أو طبيب نفساني كي أسجل أي عارض صحي أو نفسي . وإذا كان عليّ أن أصدر أي حكم على وضع عبـــد الناصر ومظهره الحالي ، بصرف النظر عن « لعبتنا » ، فانني أميل الى القول بأن قواه العقلية لا تزال كما كانت في أي يوم مضى . أمـــا فيما يتعلق

بالأهداف الخاصة بـ « اللعبة » ، فأريد أن أفترض ان كل ما حدث للذين هم من طراز عبد الناصر ، من القادة والزعماء ، قد حدث له شخصياً . فمهما كانت قدرته الشخصية على الاحتمال في مواجهة التملق الذليل والعبادة العمياء ، والولاء المجرد من كل نقـــد واعتراض ، فان الحواجز بينه وبين العالم الخارجي أصبحت من الاتساع بحيث انقطع كل شيء عنه ، إلا شواهد عصمته ، وخلوده ، وعدم تصور الاستغناء عنه ، وحتى لو كان عبد الناصر أعظم الناس عبقرية وأقواهم شخصية وأكثرهم متانة وأحدّهم ذهناً ، فان من المستحيل على مثله أن يتابع سيرة في اتجاه « لعبة الشعوب » ، بينما هو محـاط بالظروف التي تحيط بأمثاله من القادة . ومن المحتمل ان عبد الناصر لن يلاحظ هو نفسه مفارق الطرق حين يصل اليها .

وكان منطلق كل ذلك ، هو أن يجد عبد الناصر نوعاً من الضمانـــة لعهده بالاستناد الى قاعدة القمع ، كما ورد في دراسة « ايخلبرغر » . ولو ان عبد الناصر نظر الى القيادة كقضية تفرض عليه البقاء في مقدمة الغوغاء أينما ذهبت ، لما كان هناك مجـال لأي اشكال ، أو بالأحرى ، لنشأت عن ذلك مشاكل ذات علاقة بالحركة أكثر مما هي ذات علاقة بالقيادة . فناصر ، على كل حال ، لاحظ ان بقاءه في القيادة سهل حين نبارك له بذلك ، وكل ما يبقى عليه هو أن يتعرف على آمال الجماهـير ، وأن يهتف بهذه الآمال أكثر مما يهتف بها أي زعيم آخر . ولكن أن تكون زعيماً صالحاً فهذا أكثر صعوبة ... إذ أن عليك في

هذه الحالة أن تؤثر في الجماهير بحيث تحملها على أن تتطلع الى ما هو أفضل لمصلحتها . ويجب أن لا ننسى ان النقطة الأساسية في دعمنا لعبد الناصر هي أن يقوم على السلطة في أهم بلد عربي زعيم يملك من القوة ما يمكنه من اتخـاذ القرارات الضرورية ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه القرارات شعبية أو غير شعبية، مثال ذلك عقد الصلح مع اسرائيل . ولذلك ، كان أول سطر من كتابنا مع عبد الناصر هو ان النظام يجب أن يسود حتى ولو بالقوة ، إذا اقتضى الأمر . ويعود الفضل في بعض ما كنا نفكر الى شعور عبر عنه فيما بعد السيد جون دايفيس الذي قال « ان الموضوع الأساسي ليس في كون الحكومة ديكتاتورية أو نيابية أو دستورية ، ولكن الموضوع هو ما إذا كانت الحكومة تستطيع مهما كانت صفتها ، أن تحقق تماسك المجتمع الى درجة تمكنها من التحول به نحو التقدم » . ولكن جزءاً مـن تفكيرنا كان ضعيفاً في مستواه ، إذ تحقق لنا بصورة لا شعورية أن المركبات الأساسية لقاعدة القمع – الجيش ، الشرطة ، دوائر الاستخبارات – ستكون الى جانبنا في الوقت الذي كان الدعم الشعبي لعبد الناصر يسير ، لأسباب عديدة ، في اتجاه اليسار . وفي الدراسة الواردة في « مشاكل السلطة والحكومة » إشارة الى الطريقة التي وفقنا بموجبها بين النظريتين .

الجهاز النازي

قد لا نكون في حاجة الى القول ان الجيش المصري كان الاساس في « قاعدة القمع الثورية » . وقد استطاع عبد الناصر ان يجعل الجيش قادراً على القيام بهذه المهمة، بعد ان ضمن غياب ذوي الاطماع السياسية عن المراكز الرئيسية ، او حتى عن كل المراكز مهما كان نوعها . فالضباط الذين عرفوا بأن لهم مطامع سياسية أخرجوا من الجيش ، وأسندت اليهم وظائف مدنية ، فأصبحوا هناك أمام أمرين اثنين: فأما ان يكونوا أهلاً بالوظيفة الجديدة او أن يتحطموا بعجزهم عن إدارتها . أما الضباط الذين كان هناك شك في احتمال قيامهم بحركة انقلابية : الناقمون بسبب نقلهم من مراكز أساسية او الذين احتفظوا بالولاء للنظام السابق .. هؤلاء كانوا يستدرجون من قبل « عملاء — محرضين » ثم يطوقون ويعتقلون من قبل الشرطة السرية .! بقي هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، وهؤلاء كان يضمن ولاؤهم عن طريق الاستجابة لمختلف رغباتهم كمنحهم بعض الامتيازات التي ترفع من مراكزهم او تبعث في نفوسهم الفخر والاعتزاز ..

أما فيما يتعلق بموقف الاميركيين من استخدام عبد الناصر للجيش كأداة للقمع ، فلا بد من تسجيل ما يلي :

عندما طلب عبدالناصر في الأيام الأولى من حكمه مساعدات عسكرية ، لم يكن هناك أي بحث في ان تكون هذه المساعدات للقتال ضد الاسرائيليين او اليمنيين او أية جهة أخرى ، كما لم يكن هناك بحث في ان تكون كميات السلاح كبيرة . وكان الموضوع كله يدور حول أهداف الأمن الداخلي وقد أكد عبدالناصر بوضوح لجميع سفرائنا ان نظامه يعتمد على العسكريين لكي يضمن بقاءه ، وانه شخصياً ينظر الى الجيش المهلهل نظرته الى الجيش المناوىء وكانت قيمة المساعدات التي طالب بها عبد الناصر في الأيام الأولى من عهده أربعين مليون دولار ، ثم نزلت الى عشرين مليوناً ، وانتهت أخيراً الى مليون او مليونين لشراء أجهزة وأدوات استعراضية ، كالخوذ وقراب المسدسات الجلدية ، وقطع أخرى لمـّاعة من مختلف الأنواع التي تكفي لإظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة ، بحيث تعكس على الضباط والجنود شعوراً بالاعتزاز ، وكما سنورد فيما بعد فان تأخر الادارة الاميركية في تقديم هذه المبالغ الضئيلة هو الذي أدى بعبد الناصر الى الاتجاه نحو السوفيات .

وكان عبد الناصر يشغل منصب وزارة الداخلية قبل ان يسند هذا المنصب الى نائبه الذكي زكريا محي الدين الذي كان في

الوقت نفسه رئيساً للمخابرات . وعبد الناصر هو الذي حدد شكل المخابرات الجديد وفقاً للأسس ذاتها التي قامت عليها الـ C. I. A. ، وأسندت المناصب فيها الى « الضباط الأحرار » الذين كانوا يعملون تحت إمرة زكريا محي الدين ، قبل الانقلاب .

وكانت حكومة الثورة هي التي تصنع الدعاية وتجعل منها وسيلة للكشف عن أعداء النظام ، وتسليط أضواء غير حقيقية عليهم ، وتبرير ما يتخذ ضدهم من اجراءات قاسية . وكان مصطفى وعلي أمين، الاخوان التوأم ، رئيسان لأكبر دار للنشر في القاهرة . وقد نشرا في صحفهما اعلاناً وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يأتونهم بقصص الفساد في الحكم وفي حياة البلاد السياسية . وقد أتاحت هذه القصص للأخوين أمين ولمحمد حسنين هيكل وغيرهم باغراق الصحف بقصص دراماتيكية مقنعة عن النظام السابق ، وما كان يجري فيه ، وعن ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة للقمع والبتر . وقد بارك الاميركيون هذه الحملة ، حتى ان السفير الاميركي كافري أعار الحكومة المصرية السيد «لاين بارجر»وهو من أعظم الاختصاصيين ممتهن في الدعاية السوداء ، والذي لعب دوراً كبيراً خلال الحرب العالمية الثانية في تشويه سمعة الالمان الأدبية . وقد قام « لاين بارجر » بتدريب

الدعاة في الاعلام المصري على الطرق التي يجب اتباعها لالحاق الأذى بسمعة أشخاص معصومين – كمحمد نجيب مثلاً – عن طريق مديحهم او الثناء عليهم . وهذا فن لا يزال المصريون يمارسونه في سياستهم العربية .

ولأسباب ذات علاقة بسياسته الخاصة ، كان أول ما يسعى وراءه عبد الناصر هو تأمين خبير عسكري يستطيع ان يدخل النظام البروسي على نظام جيشه. واقترح عليه الملحق العسكري في سفارتنا ان يستخدم الفريق «ويلهالم فارم باخر» ، وهو قائد نازي لا يستطيع دخول المانيا ، ولكنه كان كافياً للمشاكل العسكرية البسيطة في مصر، وان كان قد ارتكب حتى في هذا الاطار أخطاء مضحكة . أما الشخصية الثانية التي اقترحها الملحق العسكري فهي « اوتو سكورزني » الذي اشتهر لانقاذه موسوليني من الاعتقال. وكان يعتقد انه صالح من حيث مزاجه وشخصيته للسير قدماً مع عبد الناصر . وقد جرى الاتصال به بطريقة روتينية ، ثم عن طريق أعلى ، ثم بزيارة قام بها أحد كبار الضباط في الجيش الاميركي ، وأخيراً عن طريق الدكتور « شاخت » ، وزير المالية في الحكومة الهتلرية ، وكان والداً لزوجته ...

وهكذا .. استطاع عبد الناصر ، عن طريق الشرطة

والمخابرات والدعاية والجيش ، ان يقيم قاعدة للقمع تمكنه من حكم مصر بالطريقة التي كان فيها «بابا دو فاليه» يحكم هايتي ... والتي تمكنه من اتخاذ القرارات الضرورية والبناءة دون ان يخشى انتفاضة الشعب . وقد قيل الكثير عن قيام عبد الناصر على رأس دولة بوليسية ليس فيها حرية الرأي ولا الكلام ولا أي نوع من الحريات الأخرى .. ولكن الحقيقة هي اننا اذا وضعنا جانباً أن مصر قد حرمت بسبب هذا النظام من كل الصحف إلا التافهة منها ، وان بعض طبقات الشعب كانت تستمع الى الاذاعة البريطانية ومحطة اسرائيل بحثاً عن الانباء والوقائع الحقيقية ، فان المواطن المصري العادي لم يكن يشعر بأن عبد الناصر قد سلبه حريته ، ولم يكن عنده شيء خاص يريد ان يقوله علناً . أما المصريون الذي هم أعداء لعبد الناصر فسيظلون أعداء له حتى ولو أطلقت حرية الكلام او منحوا جميع أنواع الحرية .. ولذلك فان حجة عبد الناصر وأعوانه هي ان منح الحريات في الوقت الذي لا يعود ذلك بالفائدة على أحد .. فانه يعود بالخسارة على الجميع ..

نعم .. كان المراقبون الغربيون يشعرون بالمرارة فيما يرون الأملاك وهي تصادر اعتباطاً ، والناس يسجنون لمجرد الشك ، والصحف خاضعة لأشد أنواع الرقابة ، والمراسلين الأجانب

معرضون لأخشن أنواع المعاملة .. ولكن من جهة أخرى، فان أعمال القمع الناصرية مهما عكسته من انطباعات خارج البلاد – لم تكن عشواء ، بل جرى حسابها بدقة وهدؤ ، ولم يتعرض لها سوى عناصر معينة .. أما عامة الشعب فلم تصب بأذى .. وكانت حجة عبد الناصر في هذه الأعمال حاجته الى حماية نفسه ، وانه يتبع بذلك نفس الوسائل التي يتبعها الاسرائيليون الذين لا يتسامحون بوجود جماعات غير يهودية في بلادهم ..!!!

أنا ... قبل مصر !

في أوائل عـــام ١٩٥٦ قضيت مع السفير المتجول اريك جونستون أمسية طويلة في حديقة عبد الناصر ، وكان الحديث يدور حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الأردن على الزعماء العرب الآخرين . وكان الغرض من المشروع هو إغـراء العرب على الدخول في تعاون محدود مع الاسرائيليين . وهذه الخطة هي في الحقيقة فكرة من الدرجة الثالثة . أما حظها من النجاح فقد كان من الدرجة الثانية (أي انه كان حظاً أفضل) لمجرد انهم اختاروا لها مفاوضاً من الدرجة الأولى ليدافع عن حسناتها هو أريك جونستون . وكانت الميزة الوحيدة لهذه الخطة انها منطقية ، فهي ستؤدي في حالة التنفيذ الى استصلاح ثلاثمـــاية ألف فدان من الأراضي الصحراوية اللبنانية والأردنية والاسرائيلية ، مع توفـير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الذين سيتعرضون بدون ذلك الى الفاقة والمجاعه لسنين طويلة قادمة . وقد تأثر عبد الناصر كثيراً بحجج جونستون العملية ، غير ان العقبات السياسية كانت كبيرة حتى على عبد الناصر نفسه ...

ومع ذلك ، فقد كان موضوع المناقشة شيقاً ، إذ قضينا نصف الأمسية ونحن نتحدث عن المشروع والمنافع التي سيحققها للمنطقة (وكان عبد الناصر في هذه المرحلة من حكمه يشك في جميع مشاريع التنمية الاقليمية ، وكذلك بالسوق العربية المشتركة وبكل الاراء الأخرى التي تدور حول التعاون الاقتصادي ، ولكنه كان مع ذلك يتحدث عنها) . وقد تحدثنا كثيراً عن المضاعفات السياسية غير المستساغة للمشروع، وأبدى عبد الناصر عطفه الشديد عليه من وجهة عامة ، ولكنه قال لجونستون :

«لقد جئتني في وقت أنا غير قادر فيه على أن أقدم على عمل لا يحظى بالشعبية الكافية من الجماهير .. » ثم اندفع في محاضرة كانت توابلها مصطلحات عن المرونة السياسية ومقاييس التسامح وغير ذلك .. وانتقل من ذلك الى القول بأنه عندما تكون شعبيته مرتفعة فهو لا يفكر إلا بما هو نافع لمصر ، أما عندما يقل شعوره بالأمن على نفسه ، فانه يتصرف تبعاً لما يتوقعه منه مؤيدوه ، مهما كانت نتائج ذلك على مصر .

ونفذ صبر جونستون ، بينما كان يصغي الى هذه الأقوال ... ثم بادره قائلاً انه قضى الاسبوع الماضي وهو يصغي الى مقترحات بديلة طائشة قدسها القادة السوريون واللبنانيون .. وانه ـ بصراحة ـ أصيب بشعور الخيبة عندما استمع الى زعيم العالم العربي بلا منازع ، وهو يتحدث عما يمكن أو لا يمكن في

أعين ديماغوجيين من هذا الطراز . ثم وقف على الفور وصافح عبد الناصر مودعاً .. وبينما كان متجهاً نحو الباب التفت الى عبد الناصر بطريقة دراماتيكية ، وقال : « سيدي الرئيس ، لقد طرق خاطري الآن كلمة قالها مرة زعيم الثورة الفرنسية : (الغوغاء في الشارع ، فيجب أن أعرف إلى أين هم ذاهبون لأنني زعيمهم) ..!».. وهنا أشع عبد الناصر بابتسامة الابتهاج وأجاب قائلاً : « هذا صحيح ...!!»

لقد كان قبول عبد الناصر لكلمة جونستون هذه على غاية من الطرافة (اذ ليس من المعقول أن يترك ناصر لرجل الأعمال الأميركي سبيل مغادرته على مثل هذه الكلمات) .. ولكنه ـ أي عبد الناصر ـ كان جاداً في قبوله لها ، لأنه أراد أن يذكر جونستون أن أي زعيم في أي مكان ، وخاصة في بلد كمصر ، لا يعرف « أين تذهب الغوغاء » لا يستطيع أن يبقى في الزعامة لمدة طويلة ..! وفي اجتماع لاحق قال ناصر لجونستون : « إن أول واجبات القيادة أن تكون زعيماً صالحاً » . ثم مضى يقول « إنه يعرف أكثر من أي زعيم آخر بأن الغوغاء في بلاده إذاً تركت لغرائزها فستقضي على نفسها . ولكن هذا لا يعني انني استطيع التجاوز عن كل ما تريد الغوغاء فرضه علي !!! »

لا أعتقد أنه كان في ذلك الوقت بالذات زعيم في التاريخ الحديث يعرف « أين تذهب الغوغاء » كما يعرف عبد الناصر ، كما لم يكن عنـد أي زعيم تفهم واقعي للحقيقة المحزنة ، وهي

آنها ـ أي الغوغاء ـ لا تعرف في الحقيقة الى أين هي ذاهبة .. سوى عبد الناصر، وليس المقصود برغبات الغوغاء الآنية منها ، بل انها ــ أي الغوغاء ــ لم تكن تعرف الأشياء على حقيقتها ، ولا تعرف من المصالح والمنافع سوى الآنية منها والتي تخفف آلام الساعـة . وكانت مهمة ناصر ــ في نظره ــ هي ان يلعب على الرغبات ذات المدى القصير ، وذلك لشراء الوقت ، ثم يوقـظ رغبات أخرى بينما هو يسعى لاعداد الوسائل اللازمة لانجاز هذه الرغبات .

ويجب ان نشهد لعبد الناصر ان فهمه لهذه الأمور لم يتحقق بسهولة .. وعندما كان يخطط لثورته كانت لديه فكرة عمـــا يجب ان يريده الشعب المصري ، ولكنه كان يعرف جيداً ان رغبات الشعب الحقيقية هي أبعد من ان يحيط بها فهمه في ذلك الحين ، كما هي أبعد من ان يحيط بها فهم أي زعيم مصري آخر. وبكلمة أخرى ، فان « الغوغاء لم تكن في الشارع » .. وهذه كانت مشكلة عبد الناصر .. فالشعب لديه دوافـــع نحو التعصب ــ كما قال بول لاينبارجر ــ تبرر في نظره ان يقدم بين حين وآخر على إشعال النار في سفارة أجنبية ، ولكنه لم تكن عنده مثل هذه الدوافع لدعم النشاطات الثورية ...!! وكان عبد الناصر يعرف ان يخلق مجتمعاً تستيقظ فيه حوافز جديدة ، لأن هذه الحوافز الجديدة وحدها هي التي تستطيع ان تتجاوب مع الزعامة التي أرادها عبد الناصر لحركته .

ولم يكن ينقص عبـــد الناصر النصائح التي كان يقدمها له

الخبراء في هــذا السبيل ... وبقليل من التطفل استطاع صلاح سالم بالتعاون مــع أحد المستشارين الأميركيين – من الذين لا أملك حرية الكشف عن هويتهم – أن يقوم بدراسة للرأي العام . وقد ساهمت هذه الدراسة بتوفير المقترحات الأساسية التي استطاع ناصر عن طريقها أن يخطط لحملته الرامية « لإيقاظ الشعب المصري » وكانت نقطة الانطلاق دراسة رائعــة قامت بهـــا سيدتان أميركيتان من « مكتب الأبحاث الإجتماعية التطبيقية » في جامعة كولومبيا . وقد قام الباحثون بإمرة صلاح سالم بالبحث والتدقيق في جميـع أنحـــاء البلاد فاتصلوا بالفلاحين ، والعمال ، والتلاميذ ، والحرفيين وغيرهم .. وكانوا يتألفون من ثلاثة مصريين وواحد بريطاني وثالث ألماني ... وفي البدء كانت الأجوبة على الأسئلة المباشرة هي من طراز مــــا يتصور المسؤول انهـا رغبة السائل . فللمصريين كانوا يقولون : « نحن نكره الانكليز والاستعمار واليهود » . وللانكليزي : « نحن نحب الانكليز وقد ساءنا انهم تركوا بلادنا » . وللالماني : « نحن نأسف لأن ألمانيا خسرت الحرب » . ثم جرى الانتقال بعد ذلك الى الطرق غير المباشرة ، حيث كان يتحدث المخاطب عن أفضل الافلام التي شاهدها ، وعن الألوان التي يفضلهـا .. وغير ذلك . وبهــذه الطريقة ، أمكن اكتشاف شعور الشعب الحقيقي نحو البريطانيين والعرب والاسرائيليين ... الخ .

وقد اشتركت الـ C. I. A. في هذه الأبحاث . وكان رئيس

جهاز المخابرات الاميركية في مصر في ذلك الحين يتمتع «بتغطية عرقية» (أي ان مظهره ولغته وعاداته وكذلك جواز سفره .. كانت تمكنه من الاندماج مع سكان البلاد الأصليين) ، وهذه معاكسة « للتغطية الحضارية » (حيث يقبل عميل المخابرات بسبب ما يفترض من ولائه السياسي او الاجتماعي) . وقد استخدم هذا شبكة من المخبرين كانت وسائلهم فعالة كما لو أنهم كانوا من مصر ذاتها . وكان موضوع الدراسة : «مدى استعداد الشعب المصري لقبول الشيوعية السوفياتية » . وقد حاول الباحث في هذه الدراسة ان يتعرف بالترتيب على آراء الشعب مصنفة وفقاً للفئة التي ينتمي اليها كل فرد : الفلاحون ، العمال ، المهنيون ، المثقفون والخ ... وأخذ بعين الاعتبار الجهات التي يستطيع ان يؤثر فيها الشيوعيون . وكثيراً ما وضع نفسه في مكان الشيوعيين كي يتعرف على الوسائل التي يحتمل ان يقدموا على استخدامها .

اللعب بشعب ... عن طريق زعيم

في شهر كانون الثاني ١٩٥٤ ، قام لاينبارجر ، وهو المسؤول الاميركي الرئيسي عن شؤون الدعاية « السوداء » بزيارة القاهرة ، حيث استبدل صلاح سالم بالعقيد عبد القادر حاتم ، الذي ظل وزيراً للارشاد القومي خلال السنوات العشر التي تلتها . وقد قام لاينبارجر بتحرير الدراسات التي أنجزتها الـ C.I.A وقدمها الى العقيد حاتم . وهذه الدراسات بالاضافة للتقارير التي وضعها الخبراء علىعهد صلاح سالم أشفعت بملاحظات ذكية كتبها عبد الناصر شخصياً وكانت هذه الملاحظات مستوحاة من تجاربه في السنة السابقة ، ومعززة بدراسة ضخمة احتفظ بها عبد الناصر ـ تحت القفل ـ في درج مكتبه الخاص . وسنرى فيما بعد أن عبد الناصر كان يعرف بأن المواقف المختلفة التي عليه أن يتخذها في « لعبة الشعوب » تقتضي أن يكون لدى العالم الخارجي صورة عن الدوافع المصرية تختلف كل الاختلاف عن الدوافع الحقيقية . »

ومشكلة التوفيق بين « الرأي الخاص » في مصر ، و« الرأي العام » الذي يريد عبد الناصر أن يعرضه على العالم الخارجي

لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . وسنرى في فصل قادم مثالاً عن «رأي خاص» أظهر في عام ١٩٦٨ انه ليس في مصر حماسة «لمحو عار هزيمة العرب في فلسطين » ، ولا « لرفع مكانه حزب الاتحاد الاشتراكي » ، وهو الحزب السياسي الوحيد الذي ترعاه القيادة في مصر ، ويتمنى الشعب المصري أن يراه ممزقـــا .. ولكن اكراماً للأهداف التي يتعاطف معها الشعب المصري ، فقد كان على عبد الناصر أن يزعم للجماهير انه يريد خوض حرب أخرى ضد اسرائيل ، وذلك لتعزيز الاتحاد الاشتراكي ، ولكي يجعل الحياة شاقة على — أعدائه — الانهزاميين ..

وآراء عبد الناصر حول امكانية التوفيق بين قيادته وبـين هذه الأوضاع تعتبر ذات أهمية خاصة ، وكذلك آراؤه في مركز القيادة بالنسبة للثورة .. وهي آراء هامة ... لا لأنها أظهرت عبد الناصر كشخصية تاريخية فحسب ، بل لأن المستشارين الأميركيين حوله قد صادقوا عليها في حينه ..! وفي ذلك إشارة الى الطريقة التي يرى بها الدبلوماسيون الأميركيون السريون كيف تكون القيادة في البلدان غير الغربية . فكيرميت روزفلت كبير رجال المخابرات الأميركية ، والمستشارون الذين أرسلهم الى مصر : ستيفن ميد ، جيمس ايخلبرغر ، بول لاينبارجر .. جميع هؤلاء لم يشرفوا على توجيـه عبد الناصر أكثر مما يفعل السوفيات في الوقت الحاضر ، فالحقيقة ان انطباق آرائهم في موضوع القيادة على آرائه الخاصة ، جعلت فلسفته القيادية موضع

إعجاب وتقدير في حدود لم يستطع النقاد الغربيون ادراكها .

وليس المهم أن يكون عبد الناصر قد فعل ما فعله برضاء الغربيين أو بمعارضتهم ، ولكن المهم ان ما فعله – في حينه على الأقل – كان يحظى بتأييد الغربيين الذين كانوا يحرصون على مصالح بلادهم ، والذين كانت تحدوهم مبادىء مقبولة من الغرب .

وكان ناصر ينطلق في نظرته للقيادة من الاعتقاد بأنك إذا أردت من فرد أو من جماعة أن تصنع لك ما تريد ، فلا يجب أن تفعل ذلك بالإقناع أو بالإكراه ، بل بخلق ظروف تحمله على أن يريد هو ما تريد . فحوافز الجماهير تتكون من رغباتها وليس من رغبات قادتها . . والقيادة ، بكلمة أخرى ، هي مهنة « خلق الحوافز » . فعليك أولاً أن تخلق الحافز عند الشعب ، أي أن تجعله يريد شيئاً ، ثم تقوده (أي تريه السبيل للوصول الى ما يريد) . أما إذا كنت لا تستطيع أن تريه الطريق الى ما يريد (وهذا ما يحدث غالباً ، إذ ليس هناك من يعرف بالضبط الطريق الى الازدهار . أو الى أي بديل آخر) . فعليك أن تريهم ما يبدو لك انه طريق الازدهار ، وهذا يمكنك من الاحتفاظ بمركز القيادة . . الى أن يبحثوا عن الأمور بطريقة أخرى .

وبينما كان عبد الناصر يدقق ، قبل الثورة ، في أوضاع

بلاده ، لاحظ ان الشعب لا يريد شيئاً ، وأن حوافزه لا تتحرك في أي اتجاه ، ولذلك رأى من الضروري أن يطوقـه بمحيط يثير فيه الحوافز ، والقائد هو جزء من المحيط . ولم يكن ناصر ، بادىء ذي بدء ، في حاجة الى أن يكون هو نفسه القائد طالما كان قادراً على صنع المحيط والاحتفاظ بالرقابة عليه ...!! وفي هذا السبيل لعب دوراً وثيق الصلة « بلعبة الشعوب » ، وقـد قال مرة للسفير الأميركي :

– انني أفعل ما أفعل لأن الرأي العام لا يسمح لي بأن أفعل شيئاً آخر ..

وهناك قال له السفير الأميركي :

– ولكن سيدي الرئيس ، من الذي جعـل الرأي العام المصري يفكر ، كما يفكر الآن ؟ ...

وهنا انفرجت أسارير عبدالناصر عن ابتسامة كلها عذوبة ..!

المال الأمريكي .. في خدمة الرئيس

الحياد الإيجابي — او حرية اتخاذ القرارات ، او مهما أردت ان تطلق على ذلك — ليس بالنسبة لعبد الناصر هدفاً فحسب ، ولكنه استراتيجية أيضاً . ففي عام ١٩٦٥، كان بيترمانسفيلد، ينظم قائمة احصائية بالقروض التي حصل عليهـا عبد الناصر ، وهي قائمة أكد أصدقائي في وزارة الخارجية الاميركية انهـا دقيقة جداً، وهي تظهر ان الرئيس المصري قد حصل حتى ذلك الحين على قروض بلغت ١٣١١ مليوناً من الدولارات ، منهـا ٤٨٣ مليوناً من الدولارات من الدول الشرقية ، ٧٧٢ مليوناً من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وايطاليا واليابان وبريطانيا وهولندا وسويسرا والسويد . وكان رقم أميركا وحدها أكبر من مجموع الدول الشرقية ، إذ بلغ ٥٣٥ مليونـاً و ٦٠٠ ألف دولار ...

وخلاف هذه الأرقام النقدية ، هنـاك المساعدات الفنية ، ومنح التجهيزات الصناعية ، والهبات الغذائية ، و ٥٠٠ مليون قيمة الاسلحة السوفياتية . وهذه الأرقام هي أكبر بكثير مما كان في استطاعة عبد الناصر الحصول عليه لو التزم جانب أحد

المعسكرين ، ونفذ ما طلبه اليه وزير الخارجية دالس ... ولكي نكون أكثر إيضاحاً ، فلا بد من القول ان الالتزام بنا كان سيؤدي بعبد الناصر الى ان يحصل منا ، ومن بريطانيا ، على أربعين او خمسين مليوناً من الدولارات سنوياً فقط ، دون أن يحصل على شيء من السوفيات ، كما يعني ذلك ان يظل عبدالناصر بدون مساعدات عسكرية ، وهي المساعدات التي يجب ان نفهم انه لا يستطيع بدونها البقاء في السلطة وهكذا ، فان السبيل الذي اختاره عبد الناصر عاد عليه بعشرة أضعاف ما عرضناه عليه ..

وخير بداية لنبحث في هذا الموضوع هو الوقت الذي أثيرت فيه مساعدةالأربعين مليوناً من الدولارات. وذلك عندما اجتمع عبد الناصر ودالس في أيار ١٩٥٣ ، وكان انطباع عبد الناصر أن أكبر رقم دار في خاطرنا هو مئة مليون أخرى للمساعدات الاقتصادية ، وان كل ما يقتضي عمله للحصول على المساعدتين هو الاتفاق مع بريطانيا على قاعدة قناة السويس .. وكان مفهوماً ان عبد الناصر لم يكن ملزماً بالانتظار حتى يوقع الاتفاق مع الانكليز ، بل كان يكفي ان يتضح للاميركيين أن المصريين كانوا يفاوضون باخلاص ، وان اتفاقاً بينهم وبين الانكليز أصبح وشيك الوقوع . وعلى أساس هذا المفهوم ، ذهب علي صبري — وكان آنئذ من أخلص أصدقاء الولايات المتحدة في مجلس الثورة — الى واشنطن ليساعد الملحق العسكري عبد الحميد غالب على

انجـــاح المفاوضات . واليوم يعتبر علي وعبد الحميد من أشد المصريين عداء للولايات المتحدة . أما السبب في ذلك فيعود الى الى اعتقادهما بأنهما قد ضللا في موضوع المئتي مليون دولار التي وعدا بها من قبل الحكومة الاميركية . وهكذا فقدنا اثنين من من أكثر الموظفين المصريين كفاءة ، كان أحدهما ، حتى المـدة الأخيرة ، نائباً لرئيس الجمهورية ، كما ان الآخر هو نائب لوزير الخارجية ، فأصبحا بالنسبة لاميركا عدوين لا أمل في استمالتهما ، وذلك نتيجة لشعورهما بالخيبة ، هذا الشعور الذي فشلنا ، على مدى من السنين في تلطيفه او التخفيف من حدته..

وقد وقعت الادارة الاميركية آنئذ في الارتباك ، لأنه كان واضحاً بالنسبة لجميع الذين تحدثوا الى صبري وغـالب انهما كانا صادقين في اعتقادهما وانهما — بالنسبة لما كان يدور في خلديهما — متأكدان بأن وزير الخارجية دالس وعد عبد الناصر بمبلغ مئتي مليون دولار .. وتعرض كافري أيضاً للارتباك نفسه لأن كلام عبد الناصر عن العرض الأميركي يعكس رنين الصدق ، وكان لا يستبعد ان يكون وزير الخارجية قد فرّط على مائدة الطعام او في مكان آخر بوعـد لم يطرق آذان مساعديه الأميركيين . وكان من نتيجة ذلـك ان طالبني كافري في مساء يوم من أيام الصيف ان أزور عبد الناصر ، وان أسأله اذا كان في امكانه ان يعيرنا المذكرة التي يحتفظ بها عن محادثاته مع دالس .. ففعلت ، واقتضاني بضع دقائق من الوقت لأشرح لعبد الناصر مـا نعنيه

بـ « مذكرة عن المحادثات » ، فهو لم يسمع قبل ذلك بشيء عن هذا. ومنذ ذلك الحين أصبح عبد الناصر أكثر تعقيداً من قبل.. وراح كل حديث له أهمية رسمية يدخل في التسجيل الصوتي من خلال المكبرات المخبوءة في مكتبه ، وفي غرفة استقباله ، وفي غرفة طعامه . أما عندما سألته عما سجله من اجتماعه بدالس ، فقد أعرب عن اعتقاده ان ليس من الاخلاص في ان يسرع الموظفون لتسجيل كل ما قيل في لقاء سري .. ! وأضاف انه هو نفسه لم ينظم مذكرة من هذا النوع ... وأعرب عن دهشته من أن يكون لدى دالس مثل هذه المذكرة .

ونتيجة لهذا الحديث ، وحديث آخر جرى بين ناصر وكافري ، اعتقدت ان ناصر قد غفر لنا ما حدث معتبراً إياه خطأ شريفاً .. ولكن علي صبري وعبد الحميد غالب لم يغفرا .. فقد قال لي الأخير مرة في وقت لاحق : « لقد عوملنا كأطفال . فبينما كنا نعتقد ذات يوم ان كل شيء أصبح واضحاً ، اذا بأحدهم من البنتاغون يلقي علينا محاضرة كأننا مبتدئون .. ثم اذا بآخر يعطينا دروساً حول « السلم والاستقرار » كأننا أغبياء .. !! ان كل ما كان ناصر يريد معرفته ، والسؤال عنه هو : « ماذا سيكون نصيبنا منكم ..؟ »

وقد حشرني عبد الناصر عند هذا السؤال في احدى الأمسيات ، بينما كنت في حديقته مع حسن التهامي ، ولكنني لم أكن راغباً في الجواب ، لأن هذا لم يكن من اختصاصي

(ففي القوانين الاميركية قانون يدعى بـ « قرار لوغان » ، وهو يحرم على المواطنين ان يحاولوا التأثير في رؤساء دول أجنبية فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الحكومة الاميركية) ، كما انـني كنت لا أريد ان أكون سبباً في خلق المتاعب للسفير كافري . ومـع ذلك ، فقد قلت «إنني كنت أفضل لو اقتصرت المطـالبة على عشرين مليونـاً من الدولارات مرفقة بالمشاريع التي سيجري انجازها عن طريقها ، وعندما تدخل المشاريع في حيز التنفيذ تجري المطالبة بمبلغ آخر » . ولم يظهر عبد الناصر أي رد فعل لكلامي هذا .. ولكن حسن التهامي انفجر قائلاً : « انني لا أريد ان أجلس هنا لأسمعك وأنت توجـه الإهانة لرئيسي ... تتحدثون الينا عن مئتي مليون، ثم تعرضون علينا عشرين مليوناً، وتطالبوننا بأن نستجدي هذا المبلغ ..! » لم أدخل مع حسن التهامي في جدال حول هذا الكلام .. وغادرنا عبد الناصر الى فراشه وعدت مع حسن الى المدينة ، وكان ملتزماً بالصمت على طول الطريق ، ولكنه عندما وصل الى مـنزلي كانت كلمته الوداعية : انه لن يمر وقت طويل قبـل ان نستجدي نحن الاميركيين قبولهم للمئتي مليون دولار ..

وفي الصباح التالي ، ذهبت مسرعاً لمقابلة كافري ، وأنهيت إليه ما حدث بالأمس ، وانتابني شعور بالفرح والارتياح عندما قال لي انني أحسنت في الاشارة الى العشرين مليونـاً كرقم معقول ... بعد ذلك طلب كافري خمسين مليوناً .. وجـاء جواب الحكومة الاميركية بأربعين مليوناً فقط ..!

رشوة شخصية !

لقد دخلت في مناقشات طويلة في تلك الأيام ، وكنت أبدأ مناقشاتي دائماً بالعبارة التنصلية : « ان هذا ليس من اختصاصي ولكن ... » لأنني من خلال تلك الظروف أصبحت الشخصية الوسط غير الرسمية بين ناصر وكافري وقد رأيت ، من خلال تقدير لمصلحتي الشخصية ، على المدى البعيد ، ان أتجنب المساهمة في عمليات فاشلة . فقد كنت أعتقد أن هذه المساعدة لا تشتمل على المبلغ الذي يكفي لوضع علاقاتنا مع عبد الناصر على أساس سليم . وكان المهم أن نعرف كيف نقدم هذا المبلغ . وعندما قمت بزيارة قصير لنيويورك في القسم الأخير من صيف عام ١٩٥٣ اطلعت بايرود على وجهة نظري (وكان آنئذ مساعداً في وزارة الخارجية) ، وانتهيت مقترحاً بأننا حين نقدم المبلغ لعبد الناصر فيجب أن نوضح له أنه مبلغ موقت ، يرتفع أو ينخفض في السنة التالية على ضوء الطريقة التي ستتبع لاستثماره او الاستفادة منه . واقترحت كذلك أن يقدم لعبد الناصر مبلغاً إضافياً لاستعماله الشخصي ، كأن يتخذ لنفسه تدابير أمن خاصة تستطيع النجاة به من المصاعب الداخلية التي أخذت تتضح للعيان

واقترحت كذلك أن ترسل إليه الحكومة الأميركية سيارة كاديلاك مصفحة، ورجلاً من المخابرات ليشرف بنفسه على تنظيم حرسه الخاص، ويقترح عليه وسائل الحماية في منزله، وكذلك أجهزة الانذار، وأجهزة وأدوات أخرى يمكن السيطرة بها على الاضطرابات .

هذه المقترحات قد لاتبدو الآن معقولة، ولكنها كانت كذلك في حينها، ولذلك فان بايرود، الذي كان ينحني لمعلوماتي عن الموقف ويعتبرها معلومات من الدرجة الأولى، باشر بإنجازها جميعاً .. فقال عن الثلاثة ملايين دولار أن في الإمكان تسليمها لناصر مباشرة، وبصورة سرية، وذلك عن طريق اقتطاعها من مخصصات رئيس الجمهورية الأميركية، وأن الـ C. I. A والـ F. B. I، تستطيعان اتخاذ الترتيبات الخاصة بلوازم الحماية والأمن . وهكذا فإن المبلغ الذي كان علينا أن نقدمه للحكومة المصرية في تشرين الثاني كان ثلاثة وأربعين مليوناً من الدولارات... أربعون مليوناً على سبيل المساعدة المالية، يجري تقديمها بطريقة نظامية، وثلاثة ملايين تدفع بدون أي مستند من ميزانية رئيس الجمهورية الأميركية مباشرة، اما الخبير بشؤون الأمن، واما تجهيزات الحماية، وأدوات السيطرة على الاضطرابات فقد تقرر أن ترسل فيما بعد ...!!

ان قضية الثلاثة ملايين دولار التي دفعت من دون ايصال ولا مستند، كانت ستظل، لولا هذا الكتاب سراً يحير

الجيولوجيين في عام ٥ آلاف بعد المسيح كما تحير اهرامات مصر الجيولوجيين في عصرنا .. فقد تلقى السفير كافري كلمة بخصوص الثلاثة وأربعين مليوناً من الدولارات ، أو بالأخرى الأربعين مليوناً زائد ثلاثة ملايين .. خيل اليه ان فكرة المنحة الشخصية لعبد الناصر فكرة سخيفة ، ولاحظ أنه إذا كان هناك شخص ما يستطيع تقديم هذا المبلغ لعبد الناصر فهو أنا . وفي اليوم التالي زار كافري الدكتور محمود فوزي ، وزير الخارجية ، ليحيطه علماً بالأربعين مليوناً ، ولكنه لم يشر بكلمه واحدة الى الثلاثة ملايين . وبسبب ما عكسه رد فعل كافري في نفسي من الشكوك ، ذهبت لزيارة حسن التهامي ، وأثرت معه موضوع الثلاثة ملايين دولار قائلاً : ان الحكومة الأميركية لا تضغط عليكم لقبض المبلغ ، ولكنني أريد أن أخبرك فقط ان المبلغ جاهز إذا أردتم استلامه..!وحسن التهامي هذا هو الذي أطلق النار في الحادث الذي أشار اليـه عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » ، أما في الفترة التي نحن بصددها . فقد كان رئيساً لحرس عبد الناصر .. وقد أجابني على كلمتي : أننا نستطيع في أي وقت أن نجد طريقاً لانفاق الثلاثة ملايين من الدولارات ، فدعنا نرى هذه الدولات ما هي . . ؟ وبعد ان حصلت على تأكيد شخصي من عبد الناصر بأن المبلغ السري مقبول ، أبلغت السفير كافري الذي قال لي بلهجة غاضبة : ان مبلغ الثلاثة ملايين النقدية قد وصل الصباح ذاته من بيروت . . وتلت ذلك مشاورات بين موظفي السفارة انتهت بإعلامي من قبل ضابط

الأمن ان ارسال حرس مسلح برفقتي الى منزل حسن التهامي في المعادي سيثير الشكوك .. وبعد لحظات كنت أخترق الطريق الى المعادي في سيارة كان يقودها سائق يحتمل أنه من أشد سائقي السيارات شقاوة في القاهرة ، وكان بين يدي محفظتا سفر فيهما ثلاثة ملايين من الدولارات .

واستقبلني حسن التهامي في منزله بالمعادي ، وكان يحيط به عدد من رجال الأمن ، ولكن دون أن تظهر على وجهه اية ملامح تدل على العطف او تشير الى الاهتمام .. وأعدنا مرتين وبوقار ، احصاء المبلغ ، فاذا هو فقط ٢,٩٩٩,٩٩٠ دولاراً . وكان تعليق حسن الوحيد على ذلك : إننا لن نتشاجر على نقص الدولارات العشر ... ثم ركب مع حرس الأمن في سيارة مرسيدس ضخمة متجهاً الى منزل عبد الناصر في الطرف الآخر من القاهرة .. !!

وكان شعوري مزيجاً من الانزعاج والمرح، وكان هذا بالضبط رد الفعل عند كافري...أما الشعور الأول الذي انعكس في نفس عبد الناصر ، فهو ان يعيد المبلغ ، وربما ان يعلن للعالم عن « محاولة الرشوة » بطريقة مناسبة (كما فعل رئيس وزراء سنغافورة فيما بعد عندما عرض عليه المبلغ ذاته في ظروف مماثلة) ...

ولكن عبد الناصر لم يكن من هذا الطراز .

هل هي حرب مفتعلة؟

قال مايلز كوبلاند : « ما هي الاستراتيجية التي بقيت لزعيم كعبد الناصر على مائدة اللعب الجديدة؟» فلنفترض قبل كل شيء ان الحقائق التالية مسلم بها :

١ – ان عبد الناصر كان من الأشخاص الذين يعتبرون السلطة هدفاً أساسياً ، ولولا ذلك لما استولى على السلطة ولا تمسك بها .

٢ – كان من المنطقي بالنسبة عبد الناصر أن ينطلق من قاعدة القمع ، وأن هذه القاعدة كضرورة لا بد منها ، تستلزم بيروقراطية وجيشاً ضخماً يتجاوز ما في طاقة مصر واحتماله .

٣ – الحصول على ولاء شعب محروم كالشعب المصري يتطلب التزام مواقف غير مثمرة من الناحية المنطقية .

٤ – الولاء الذي استطاع عبد الناصر الحصول عليه ناشىء عن التزامه موقف « الحياد » . ولم يكن هناك مفر – بالنسبة للدول الكبرى – من أن يعتبر الحياد استراتيجية وليس هدفاً .

٥ – عندما تبدأ استراتيجية الحياد في العمل (والغرب لا عبد الناصر هو الذي جعلها تعمل) فلا بد من توقع اندفاع عبد الناصر بهـــذه الاستراتيجية الى حدها الأقصى ، عن طريق انضمام دول أخرى ، وذلك ليصبح بالامكان مواجهـة الدول العظمى ككتلة متحدة .

٦ – عندما تؤتي استراتيجية « الوحدة » ثمارها ، فلا بد لعبد الناصر من أن يلجأ الى أساليب القوة ضد أخصامـه ، كما يفعل كل المنظمين للاتحادات .

٧ – وأخيراً ، فان تحليلا معقداً للموقف في واشنطن ولندن وموسكو قد يعكس على هذا السلوك صفة المنطق ... أما بقية العالم فقد يشعر منه بالقرف الى درجة قد تحمل احـدى الدول الكبرى على وقف غزلها مع عبد الناصر ، كأن تقول : « إن في وسع الآخرين أن يأخذوه » وبذلك تجعل مـــن الممكن على الآخرين أن يأخذوه بثمن بخس ..

الجواب ... بالنسبة لأي شخص لم يسلك من قبل هذه الطريق .. بسيط جداً ..! انه كالجواب يعطى لمن كان يربح ٥٠ الف دولار في السنة ، فنزل المبلغ فجأة الى ١٢ الفاً .. قد تقول له . « اضغط على حاجتك ، وانزل بها الى حجم معقول ، وحاول أن تكون سعيداً بقـــدر ما تستطيع ولو بدخلك الجديد ..! وهذا هو بالضبط ما اقترحه على عبد الناصر بعض رجالنا ، وبينهم روبرت اندرسون وزير المالية السابق والصديق

الحميم للرئيس جونسون .. ففي كانون الثاني ١٩٦٧ قام اندرسون بالتعاون مع محمد حبيب من السفارة المصرية في واشنطن باختيار قائمة من الشخصيات المالية النافذة ومن رجال الأعمال ، وكانوا جميعاً أصدقاء للرئيس جونسون . وقد أعد محمد حبيب الترتيبات لهؤلاء كي يقوموا بزيارة للقاهرة ، فوصلوا اليها في شهر شباط من عام ١٩٦٧ ، وقد تأثروا كثيراً لا بالاحتمالات الاقتصادية المشجعة فقط ، بل بالرئيس عبد الناصر شخصياً . وعندما عادوا الى الولايات المتحدة نقلوا انطباعاتهم للرئيس جونسون . وبدا من خلال فترة معينة كما لو كان من الممكن أن تباشر الحكومة الأميركية مع عبد الناصر علاقات جديدة من نقطة الصفر .. على أن يتخلى عبد الناصر عن مشاريع الوحدة (ولو كان لا يزال في امكانه أن يتابع لعبة الحياد على مائدة اللعب الجديدة) ، وأن يقلل من أطماعه الى درجة معقولة ، وأن يركز اهتمامه على بناء مصر من الداخل ، على أن نعمل من جانبنا كل ما في وسعنا لمساندته مالياً لتحقيق هذه الغاية ..

غير ان موجة التفاؤل هذه ، لم تأخذ بعين الاعتبار القوة الدافعة التي ولدها نظام كنظام عبد الناصر ، وكيف ان هذه القوة هي كتلك التي تطير بها الطائرة الضخمة .. ؟ « انزل برقم جيشك الى ٥٠ الف رجل ، وبجهازك البيروقراطي الى ١٨٠ الف رجل ... تراجع عن تأميم الصناعات المؤممة .. حل الاتحاد

الاشتراكي ، واترك للفرص أن تأتي ببديل عنه ».. ان خطوات من هذا النوع عندما يراد منها أن تتحول الى مستوى التنفيذ ، فلا بد لها من أن تبدو بعيدة عن الخاطر ... وعندما يلاحظ عبد الناصر هذه الحقيقة فليس معنى ذلك انه تحول الى مجنون سلطة أو أنه فقد عقله .

وهناك بعد ذلك النفوذ السوفياتي ... والسوفيات يمتازون عنا بأنهم يستطيعون الامتناع عن ممارسة الضغوط . وسلوك عبد الناصر في المنطقة كان يناسبهم بوضعه الراهن ... وكما قال عبد الناصر لسفيرنا في القاهرة : « ان ما أقوم بـــه في اليمن وغيرها ، سأقوم به حتى ولو لم يكن الاتحاد السوفيتي في قيد الوجود . » ومن جهة أخرى ، فان مسؤولياتنا لا تتيح لنا أن نساند عبد الناصر على أساس : « افعل ما يحلو لك ، فنحن راضون .. ! »

وبعد ان غادر الأثرياء الأميركيون القاهرة ، أصبح الموقف في المنطقة يشغل الرئيس عبد الناصر ، حتى ان كل موضوع يتعلق بمصر أولاً أصبح بعيداً عن تفكيره ..

والحوادث منذ تلك اللحظة حتى انفجار الحرب مع اسرائيل دلت على ان عبد الناصر قد زلت قدمه فوقع في شباكها ، وان اسرائيل كانت مرتبكة وغير مستعدة لها ، وان المخابرات الروسية تنقصها الكفاية والمقدرة ، كما كانت محاكمتها ضعيفة .. أما الولايات المتحدة فلم تكن قادرة على أن تصنع شيئاً ..

— غير انني أريد أن أضيف الى ذلك ان عبد الناصر لم تزل به القدم تماماً ، كما ان اسرائيل لم تكن تماماً غير مستعدة . لقد أعد عبد الناصر عملية كاملة امتدت تفاصيلها حتى اللحظة التي تقرر أن يسافر فيها زكريا محي الدين الى واشنطن ، ليتراجع برحابة صدر عن حصار مضايق تيران استجابة لنداءات الأمم المتحدة ... غير ان الاسرائيليين لم يكونوا راغبين في أن يخرج عبد الناصر من الأزمة محتفظاً بمنزلته واعتباره . ولذلك فانهم على الرغم من الوعد الذي قطعوه لجونسون بأن يمسكوا عن القيام بأي عمل حتى يصل زكريا محي الدين الى نيويورك ، فقد ضربوا ضربتهم في صباح اليوم الذي تقرر فيه سفره .. وعلى كل حال فقد كانوا يتدربون على الهجوم سنين طويلة ولذلك لم يكن من المعقول أن تفلت منهم هذه الفرصة .

أنا لا أعرف ماذا كان يجري في تل أبيب وواشنطن ، وأعرف بعض ما كان يجري في موسكو عن طريق أصدقائي المصريين الذين كانوا يحرصون على اطلاعي على ما عندهم من معلومات . أما ما رأيته في القاهرة بنفسي فأورده فيما يلي :

لقد كان الأمر الأساسي الذي يقلق عبد الناصر قبل شهرين من الحرب، هو وضع البلاد الاقتصادي . وفي مطلع عام١٩٦٧، قام فريق من رجال الدراسات الذين يعملون في مؤسستي ، باستقصاء أصدق الأرقام الرسمية عما كان عليه رصيد مصر من الذهب والعملة الصعبة في تموز ١٩٥٢، أي عندما عام عبدالناصر

بانقلابه، وأضافوا الى هذا المبلغ المساعدات الخارجية (القروض والهبات) التي تلقتها الحكومة المصرية في عهدها الثوري ، ثم أضافوا الى الرقمين مجموع الأرباح الناشئة عن التصدير بين منتصف عام ١٩٥٢ و ١٩٦٦ ، ثم طرحوا من المجموع مجمل النفقات .. فظهر من ذلك أن العجز في ميزان المدفوعات الذي يبلغ سنوياً ٤٠٠ مليون دولار قد امتص كل هذه الموارد بما في ذلك القروض التي لم تكن الحكومة المصرية قادرة على سدادها ويقول البروفسور لاكور ان احتياطي مصر من الذهب قد نزل في ذلك التاريخ الى أربعين مليوناً من الدولارات ، ومن العملة الصعبة الى ٤٦ مليوناً .. ولكن لو ان شخصاً ما حاول في اذار ١٩٦٧ ان يكشف حقيقة الـ ٤٦ مليوناً المشار اليها ، لما وجد أكثر من مليونين اوثلاثة ملايين يمكن دفعها في الحالات المستعجلة فقط.. فبعض المعامل كانت مغلقة بسبب الحاجة الى قطع التبديل ، مع أنها لا تحتاج الى أكثر من بضعة ألوف من الدولارات . ومؤسسة الخطوط الجوية المصرية التي تملك سبع طائرات نفاثة أوقفت منها أربعاً بسبب فقدان قطع التبديل ، مع العلم ان كل مدخول هذه المؤسسة هو من العملة الصعبة .. ولو أن الحكومة المصرية آنئذ باعت كل موجودها من الذهب، فالعائدات كانت لا تكفي لشهر واحد من الاستيرادات العادية . وكانت التقارير الفصلية للسفارة الاميركية في القاهرة تؤكد مرة بعد مرة ، ولأكثر من سنة ، ان الجمهورية العربية المتحدة ، كانت تواجه افلاساً محتماً . وكان الماكرون من المراقبين الأجانب يقولون

بجبث : « لقد كنا نسمع بهذه المصاعب منذ سنوات ، ولكن مصر كانت دائماً تجد طريقاً للتخلص منها .. » غير ان الحقيقة هي ان الجمهورية العربية المتحدة ، وان كانت قد ارتطمت هذه المرة بالقعر ، فان السوفيات الذين كانوا يرقبون نهاية المنافسة كانوا يستعدون لتقديم مبالغ صغيرة وتدريجية وفق ما يحلو لهم ...

لقد اعتقدت لسنين طويلة ، ولا أزال أعتقد ، بأن نظام عبد الناصر هو أكثر الأنظمة مناعة ضد الانقلابات في العالم العربي ، ولكن في آذار ونيسان ١٩٦٧ بدا كما لو ان عبد الناصر قد بلغ من الخط نهايته ، وكان هو ومساعدوه يعرفون ذلك تماماً ، كما كان كل شيء يدل على ان المسرحية الكبرى قد انتهت . وحكومتنا التي أنفقت ٥٠٠مليون دولار منذ ثورة لبنان ١٩٥٨ أخذت تصر على ان المعيار الأخير هو في الاستفادة من معوناتنا ، وليس الضغط السياسي .. وكان وورد اليوت يردد ما دار بخلد جميع رجال المال الرسميين والمصرفيين ، حين كتب يقول في مجلة « السياسة العامة » الصادرة عن جامعة هارفارد : « ان اصرار عبد الناصر على مكانه في السياسة العالمية يكلف المصريين موارد من الأفضل ان تنفق في مكان آخر .. وعلى كل بلد يقدم مساعدة الى مصر ان يعلم بأن أية مساعدة – تحرر أموالاً مصرية – يستخدمها عبد الناصر في تحقيق أطماعه الاقليمية ، او انها تساعده على تزويد عرشه بمقاطعات جديدة ..

والحقيقة أن موقفنا هذا قد انكشف أخيراً على جميع الذين كانوا يمسكون بمفاتيح السلطة في الجمهورية العربية المتحدة. وعلى الرغم من أنني لم أكن أفكر بانقلاب محتمل ضد عبد الناصر ، فقد بدا لي ان من الممكن ان يقدم أصدقاؤه – بموافقته ولو على مضض منه – على تحويله الى سوكارنو جديد . وقد سبق لاندونيسيا ان وقعت في الورطة ذاتها . وكان الحل ان يرتفع سوكارنو الى منصب أرفع مستوى . وأن تنتقل الادارة الى أوصياء شرفاء ، ثم يصار الى انقاذ البلد من حالة الافلاس . وقد عرفت من مصادر موثوق بها ان الخروج من الفوضى على هذه الطريقة كان موضوع بحث جدي من قبل أفراد رئيسيين في حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، ممن يعتبر ولاؤهم لعبد الناصر فوق كل مطعن ... وأعتقد أن واحداً او اثنين من هؤلاء كانا جريئين الى درجة أقدما فيها على عرض الفكرة على عبد الناصر شخصياً .. غير أنني أعرف عبد الناصر ، كما أعرف ان مثل هذه المحاولات لا يمكن ان يكتب لها النجاح ... ذلك ان ناصر هو من الأشخاص الذين لا يذهبون بالشكوى والتذمر ... بل بالفرقعة والانفجار ...!!

وطن .. على مائدة قمار !

قبل حرب حزيران لم يعد أعوان عبد الناصر يبدون اهتماماً لموقف العرب الآخرين من نظامهم ... أما عبد الناصر شخصياً فقد ظل يعتبر المحافظة على ماء وجهه أمراً أساسياً بالنسبة للشعوب العربية . وقبل أن أغادر القاهرة هارباً من الكارثة المرتقبة ، سألت أحد أتباع عبد الناصر المخلصين : (لماذا يحرص الرئيس على أن يبدو كدولاب كبير لموكب من الخاسرين ؟!) وقد أجابني المسؤول قائلاً : (ليتني أعرف ذلك) .

وعندما بدأ الأردنيون يزدرون الحكم الثوري في مصر لأنه لم يظهر رد فعل ضد الغارات الجوية على سورية والأردن ، أغفل عبد الناصر المشاكل الاقتصادية الهامة ، وانصرف الى حملة اعلامية معاكسة . وكانت تزعجه بصورة خاصة الاذاعة الأردنية التي اتهمته بالضعف والجبن . واعتقد ان هذا ما دفع به الى اغلاق مضايق تيران .

ويقول الاستاذ لاكور في كتابه (الطريق الى الحرب) انه كان على السوريين وعبد الناصر أن يعرفوا بأن (التهديد من

مركز الضعف سياسة خطرة) .. واعتقد ان السوريين وعبد الناصر كانوا يجهلون ذلك ، بل هذا ما كانوا يعملون نقيضه خلال سنوات طويلة (وفي وسعي أن أضيف أنهم ، على الرغم من مركزهم الضعيف منذ حزيران ١٩٦٧ ، فان شهيتهم للمساومة ظلت قوية ، كما لو انهم هم الذين ربحوا الحرب ..) .

وهناك أخيراً العامل السوري ... ففي ٧ نيسان حلق عدد من الطائرات السورية فوق المنطقة المجردة من السلاح ، والقى قنابله على بعض التراكتورات الاسرائيلية ، ولكن لم تكد الغارة تنتهي حتى ظهرت طائرات الميراج الاسرائيلية واشتبكت في معركة جوية مع الطائرات السورية ، فاسقطت منها ست طائرات في حدود مدينة دمشق . وفي الأسابيع التالية بدأت إذاعة دمشق تدق طبول الحرب ضد اسرائيل ، وكانت الحكومة السورية في وضع لا يدع مجالاً للشك — بالنسبة لمن لا يعرف حقيقتها — بأنها على خوض حرب ضد اسرائيل ... وقد ساعد تسلحها بمعاهدة الدفاع المشترك التي وقعتها مع مصر في تشرين الثاني ١٩٦٦ على تزويد اسرائيل بكل ما كانت تحتاج اليه من براهين لإظهار نفسها بمظهر الدفاع عن النفس ..

وقد كان يدور في خلد المصريين والسوفييت أن معاهدة الدفاع المشترك ستحمل السوريين على ضبط النفس ، ولكن النتائج كانت عكسية .. فقد رأى السوريون أنهم وضعوا الجيش

المصري بهذه المعاهدة رهن إشارتهم . واتضح في شهر أيار انهم هم الذين انتزعوا زمام المبادرة وليس عبد الناصر .. !

وعلى الرغم من عـــدم وجود أية صلة لي بالسوريين ، فان أصدقائي من المصريين الذين التقوا بهم أثناء فترة التعبئة أكدوا لي ان حكام سورية يريدون الحرب ، وأنهم واثقون من إحراز النصر . بمساعدة المصريين طبعاً .. !

أما أنا فأخالف كل الكتاب الذين زعموا أن المصريين كانوا يعتقدون بالقدرة على هزيمة اسرائيل .. وقد نقل لي عبد الناصر شخصياً حديثاً جرى بينه وبين الفريق عامر ، قبل أسبوع من الحرب عندما وبخه على تخلف جيشه ، وقال له انه عاجز عن هزيمة اليمنيين مـــن مدمني المخدرات فضلاً عن جيش حديث كالجيش الاسرائيلي .. ! ولم يكن عبد الناصر وحده من هــذا الرأي ، بل إن جميع أعوانه كانوا قلقين من مستوى الاستعداد في الجيش المصري . وقد قال لي أحدهم قبـــل أيام قليلة من الحرب : إن مصر إذا استطاعت الخروج من هذه الازمة بنصر دبلوماسي ، فستترك السوريين وشأنهـم ليخوضوا المعركة بمفردهم .

وجميع أعوان عبـــد الناصر ، وكذلك الأميركيون في القاهرة ، بمن فيهم شخصي وآخرون من المراقبين في المنطقة كانوا يعتقدون ان حظ عبدالناصر بالانسحاب من الأزمة بنصر

دبلوماسي لا يزيد عن ٥٠ بالمئة ، وذلك على الرغم من أن كثيرين منا لم يحركهم خطابه في ٢٩ أيار الذي أعلن فيه أن مصر « أصبحت مستعدة للحرب ضد اسرائيل بل ولمواجهة القضية الفلسطينية برمتها » وان « مصر هي التي ستقرر زمان المعركة ومكانها ، ولن تترك لإسرائيل سبيل الخيار » .. وهذه البيانات — ولو ان اشكول قال ما يشابهها في ١١ أيار — أعطت الاسرائيليين حجة كافية ليكونوا هم البادئين بالضربة . كما سبق وفعل السوريون — عن طيب خاطر ! — .. وعندما غادرت القاهرة الى لندن في ذلك الحين ، قلت لأصدقائي المصريين : إنني أراهن على آخر دولار مما أملك على ان عبد الناصر عرض نفسه لبيرل هاربر جديدة ، ولن يغير من هذه النتيجة ، المهمة التي كلف بها زكريا محي الدين في واشنطن ، ولا تأكيدات الاسرائيليين للرئيس جونسون ..

.. فالمهم ان عبد الناصر قد قامر ... وخسر ..!

رسمنا لعبد الناصر طريقاً واللعبة مستمرة !!!

يرى عالم الاستراتيجية الفرنسي اندريه بوفر ان «الظفر» في الحرب يكون عن طريقين : فاما ان تدمر عدوك تدميراً تاماً ، او ان تضع نفسك في مكان تستطيع منه فرض الاستسلام عليه. واذا أخذنا بهذا التعريف للظفر ، فان نظرة الى المرحلة التي أعقبت حرب ٥ حزيران تثبت ان الاسرائيليين لم « يظفروا » في حرب الأيام الستة ، لان عبد الناصر برز من هذه الحرب وهو – كحاكم لمصر – أقوى بكثير مما لو استطاع تجنب هذه الحرب. ولكن اذا اعترضت عبد الناصر أزمة جديدة مماثلة في المستقبل، فماذا يفعل ؟.. اعتقد ان جوابي على هذا السؤال أصبح واضحاً لكل من قرأ كتابي بدقة وعناية .

الى أين نذهب بعد الآن في علاقاتنا مع جمال عبد الناصر ؟ لقد توصلت من خلال هذه الدراسة الى الاعتقاد بأن سلوك عبد الناصر ، كان بالنسبة للظروف التي كابدها طبيعياً ومنتظراً . وأعتقد انه تصرف كما يتصرف أي شخص آخر له عقليته وأدواته العلمية. إنني أحبه شخصياً، وأكاد لا أعرف شخصاً آخر يسرني ان أقضي مساء يومي عنده في الحديث والمرح .. فهو من أشجع

الرجال ، غير قـابل للتحول ، ومجرد من المبادىء ، كما أنـه بانسانيته — وعلى طريقته — من أعظم القادة الذين سبق لي شرف التعرف بهم . وهو يتحلى باحساس مرهف في دعابته ونـكاته . . . ولا يتصرف — كما يخيل للكثيرين — من خلال حقده و كبريائه ولا من خلال نزواته ، ولا من خـلال نوازع أخرى صغيرة او تافهة . . لقد رسمنا طريقاً لعبد الناصر فأقدم على سلوكه ، ولو أننـا وضعنا له برنامجـاً آخر لانتهت الأمور على شكل آخر . ودوره في مستقبلنا يتوقف عـلى نوع المستقبل الذي سنحدده لأنفسنا . . !

وماذا عن مستقبلنا في « لعبـة الشعوب » ؟ إنني لا أعرف الآن ما اذا كان مركز الألعاب لا يزال قائماً . . ! ولكنني واثق من أن هذا النوع من الممارسة لا يزال مستمراً في جامعاتنا الرئيسية ، وواثق من ان دبلوماسيينا الذين كانوا عـام ١٩٤٧ سذجاً فيما يختص بالشرق الأوسط ، قد اجتازوا الآن طريقـاً طويلاً وتفتحت أمامهم آفاق جديدة . ان السياسة غير المنتجة في البلدان المتخلفة التي كنا نرى انها ضرورية للتنظيم الديمقراطي ، نستطيع ان ننظر اليها الآن مع استقلال تام في الرأي لم نكن قادرين على مثله قبل عشرين عاماً . وسيتاح لنـا بعد الآن ان ننظر الى الشؤون السياسية ذات العلاقة بالبلدان المتأخرة نظرة الطبيب الى المريض الموبوء : أي باهتمام ، ولكن دون تورط او تدخل . واعتقد ان كل سفارة أميركية سيكون لهـا سكرتير

ثالث يتعقب الماميو جامبو والهيبي جيبي والاشتراكيين الوطنيين والوطنيين الاجتماعيين ، وجميع الآخرين .. ولكنني اعتقد ان تقاريره حين تصل الى واشنطون فسيقوم على دراستها العلماء بعلم الانسان وليس الخبراء السياسيون .. وسوف نهتم فقط بالأسئلة التالية : كيف تعالج حكومة (أزانيا) – مثلاً – مشكلة تضخم السكان ؟! كيف تقوم بتطوير زراعتها وتزيد الطـــاقة الانتاجية لقوتها العاملة ...!!

ان الفكرة الرئيسية هي كما يلي : هنـاك قطاع من الجنس البشري يريد ان يضع انساناً على القمر ، وأن يجد علاجاً لمرض السرطان ، وان يحل جميع المشاكل الناشئة عن تضخم السكان ، وتناقص المواد الخام .. فمن يريد اللحاق بهذا الركب فسيكون له مكانه فيه بدون النظر الى فوارق العرق او الدين او اللون... أما الذين لا يزالون مهتمين بحرق السفارات الأجنبية ، ورفض المادية الغربيـة ، وكذلك جميع الذين يريدون « التحرر من الامبريالية » يستطيعون ان ينصرفوا الى ذلك مـع بركتنا .. ذلك ان التحرر من الامبريالية هو بالنسبة الينا علاج نستطيع توفيره بكميات كبيرة ...!!

ايخلبرغر الصهيوني .. في اللعبة

في نيسان ١٩٥٤ وقعت تركيا وباكستان على « معاهدة صداقة وتعاون على الأمن » . وليس من الدقة في شيء أن تعتبر هذه المعاهدة بأنها عسكرية ، بل كان من الواضح انها عقدت بمحض اختيار الأتراك والباكستانيين ، دون أي تشجيع من جانب بريطانيا او الولايات المتحدة . ولكن في ذلك الشهر بالذات وافقت الولايات المتحدة على ان تمنح مساعدة عسكرية للعراق ، وذلك في ظروف أثارت الشكوك في نفس عبد الناصر على الرغم من أن نوري السعيد رفض كل الالتزامات التي طلبها منه الدبلوماسيان الاميركيان جيرهارد وايفلاند . وبعد تسعة أشهر من ذلك التاريخ أعلن العراق وتركيا أنهما على وشك إبرام معاهدة دفاعية . وعندما أبرمت المعاهدة بعد شهر ، انضمت اليها بريطانيا .

وفي الفترة التي كنت أقضي فيها خدمتي في القاهرة ، كنت أجد وقتاً كافياً للقيام برحلات متكررة لسورية والولايات المتحدة حيث وجدت فرصة كافية للاجتماع بزملائي السابقين في واشنطن . وكان بيل ايفلاند قد عرض علي ، عندما زار

القاهرة مع آل جيرهارد في تشرين الثـاني ١٩٥٤ ، صورة عن التسلسل المحتمل للاحداث ، وأشار الى انه قال لعبد الناصر ان مصر قد تهمل جانباً .. ! ولكن لم يكن بيننا من صدّق ايفلاند في حينه ، وكذلك لم يصدقه كافري ولا جيم ايخلبرغر . وفي اليوم الذي أعلن فيه الأتراك والعراقيون قرارهما ، لم يطلع عليه ايخلبرغر إلا من لوحة الأنباء المعلقة في السفارة ، ولكن لم يرد له ذكر في أية برقية من برقيـات السفارة التي كانت ترد من وزارة الخارجية ، فاقترح أن نذهب سوية ، وعلى الفور ، الى مـنزل عبد الناصر لنطلعه على النبأ .. ففعلنا .. !

وهنا استوى عبد الناصر هادئـاً لفترة قصيرة ، ثم اندفع بصوت هادىء يسوده التشاؤم : (انه مهما كان من تلميحـات ايفلاند وجيرهارد فان جميـع الاميركيين الذين اتصل بهم ، بمن فيهم السفير كافري نفسه ، أكدوا له انهم سيمنحونه من الوقت ما يكفي ليقوم هو بتأسيس منظمة اقليمية للدفاع عن المنطقة تكون غـير مرتبطة بالغرب بصورة مكشوفة ، ولكن يجري بناؤها بشكل تكون فيه قادرة على ان تقـع ضمن المخططات الغربية عندما يجدّ خطر مشترك) . وكان حسن التهامي حاضراً الاجتماع ، فاحتدم غاضباً، ولكن ناصر حمله على الهدوء، وصمت الرجلان .. وغادرت المكان مع ايخلبرغر ..

وبعد قرابة يوم، ذهبت الى دمشق، في مهمة أخرى . وكان صديقي مجد الدين الجابري ، وزيراً للاقتصاد آنئذ ، فذهب بي

لمقابلة وزير الخارجية فيضى الاتاسي الذي ألقى علي محاضرة مليئة بالشكوك الصبيانية ، والمخاوف اللاعقلانية من أوهام وأشباح لا وجود لها .. وأستطيع التأكيد انني لو أعدت ما سمعته منه على المسؤولين في واشنطن لبدا لهم وكأنه به مساً من الجنون (برغم انه لم يكن مصاباً بالجنون) .. ولكن هذا الحديث فتح عيني على الصورة التي ينظر بها العرب إلينا : « أمبرياليون » « تريدون ابقاءنا ضعفاء » ، « لا يسعدكم الا أن ترونا عبيداً » ، « تفضلون ان ترونا متخلفين نسعى وراء الأوهام .

« فاضل الجمالي عميل اميركي » ، « الوصي يريد ان يصبح ملكاً على سورية » ... والى آخره .

وفي اليوم التالي ، أضعت ست ساعات وأنا أشق طريقي خلال الثلوج للوصول الى بيروت ، حيث قضيت أمسية مع عدد من أتباع عبد الناصر من اللبنانيين الذين سمعت منهم الأقوال ذاتها . غير أنني سمعت كلاماً من نوع آخر من اللبنانيين الذين لا يحبون عبد الناصر ، الا أن هذا الكلام كان من حيث مدلوله تأكيداً لأقوال الآخرين في الصف المعاكس . وفي ذلك اليوم بالذات تعرفت في السفارة الاميركية على أحد القادمين من واشنطن ، وقد قبض هذا علي من ذراعي قائلاً : « أعتقد اننا قد اكتشفناكم يا عشاق عبد الناصر » ...!!

وفي الوقت الذي عدت فيه الى القاهرة، كانت الاستعدادات

تتخذ لاجتماع وزراء خارجية الدول العربية .. وكان أصدقائي المصريون قلقين من الاجتماع ، وكانوا يصرفون في حديثهم الى كلمات ضد وزير الخارجية دالس. وعندما وصل وزراء الخارجية العرب (كنت أعرف نصفهم تقريباً ، كما كنت قد دخلت في مناقشات قصيرة مع أكثرهم) أعربوا لي عن آراء فهمت منها ان خلافهم على ميثاق بغداد قد ينتهي الى انشقاق ، انشقاق قد يحلو للسوفيات أكثر مما يحلو للغرب .

وفي هذه الأثناء وصل بايرود ليتسلم منصبه كسفير للولايات المتحدة في مصر خلفاً لكافري، وفي ذلك اليوم دعوت الى طعام الغداء في منزلي عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي ، وكنت قبل ذلك قد قمت مع ايخلبرغر باطلاع بايرود على آرائنا السلبية بالنسبة لحلف بغداد . وقد التقى بايرود ، الى درجة ما، بوجهة نظرنا ، وكان ذلك كافياً ليحمل عبد الناصر على ان يرى الأمور وكأنها ستتطور الى خير مما كانت عليه من قبل ، وعلى الأقل فيما يتعلق بدرجة المساندة التي سيلقاها حلف بغداد من الاميركان والبريطانيين .

وفي آذار، علمنا ان بريطانيا هي على وشك توقيع المعاهدة، وان ضغطاً يمارس على الحكومة الاميركية لتحذو حذوها. وفي ذلك الحين كان بايرود قد حمل نفس الرأي الذي كنا نحمله ، فاقترح علي ان ألفق سبباً للسفر الى الولايات المتحدة ، وأن أعمل هناك على الاتصال بأصدقائي في وزارة الخارجية

والـ C. I. A. وأبلغهم شفهياً ما كان يعنيه هو وايخلبرغر في البرقيات والمذكرات التي أرسلاها منذ وصول الأول الى القاهرة (لأن بايرود كان يتحفظ في اظهار ما دخل على آرائه من تغيير بعد وصوله الى مصر ، ولا يرى في هذا التغيير شجاعة بل غباء). وفي أي جهاز بيروقراطي ، فان التغيير من مواقف هامة وقوية يجب ان يجري تدريجياً وبهدوء وكيلا يحدث تأثيراً في ثقة الادارة المركزية بالموظف الكبير .. !

وفور وصولي الى واشنطن ، قمت بزيارة كيرميت روزفلت في الـ C. I. A. وعرضت عليه آرائي بخصوص ميثاق بغداد ، وعلى الرغم من ان كيم لم يوافق على رأيي تماماً فقد كان لديه من المعلومات والتقارير ما يكفي ليأخذ ما نقلته اليه بعين الاعتبار وشجعني على ان أدافع عن رأيي هذا . وباتصالين هاتفيين ، وخلال دقائق معدودات ، أعد كيم اجتماعاً بين موظفي وزارة الخارجية الاميركية والـ C. I. A. ، لينعقد بعد الظهر في مكتب وزير الخارجية دالس . والذين لم يتطلعوا على تفاصيل ما حدث في ذلك الاجتماع ظلوا في معزل عن معرفة ما أصاب ميثاق بغداد من اهتزاز بعدما فقد ثقة صانعي السياسة العليا في واشنطن .

حضر ذلك الاجتماع وزير الخارجية بالذات وبيل روانتري الذي حل محل بايرود كمساعد في وزارة الخارجية وكيرميت روزفلت من الـ C. I. A. وأربعة آخرون من الذين كان يطلق

عليهم كيم « شبان الوزارة المتهنين اللامعين » ، والذين كانت لديهم خبرة واسعة ومعلومات محفوظة عن جميع بلدان الشرق الأوسط ومواردها الطبيعية وجميع المعلومــات الاحصائية الأخرى . ولا أذكر مــا اذا كان بيل ايفلاند قد حضر هذا الاجتماع ، ولكني أذكر انه كان هناك ممثل عن البنتاغون . وعلى كل حال ، فقد حضر الاجتماع جميع الذين كانوا في مركز القمة بالنسبة لاستراتيجيتنا في الشرق الأوسط . وكانت لديهم كل المعلومــات عن السياسة السوفياتية والتسلح الذري وازدياد الانتاج البترولي حتى عام ١٩٧٠ والتطور الصناعي في أوروبا ، ومختلف المواضيع المعروضة على الحلف الاطلسي .. وقد كانوا جميعاً على غاية من التهذيب وأعاروني اهتماماً تاماً ، غير أنني لم أستطع في حضورهم جميعــاً ان أفيض في شروح وتفاصيل عن بعض مداخل ومخارج السياسة البعثية في سورية وعن الحساسيات الخاصة بمشروع الهلال الخصيب وغير ذلك . فقــد كان هؤلاء السادة ينظرون الى القضايا العالمية من خلال القنبلة الذرية والحرب الباردة بين الشرق والغرب والحلف الاطلسي وحلف وارسو . أمــا تفكيرهم بخصوص الشرق الأوسط ، فقد كان خــاصاً بالمشاكل والموارد الاقتصادية ، وذلك باستثناء قضية اسرائيل التي هي لأسباب تتعلق بسياسة أميركا الداخلية تتطلب اهتماماً خاصاً من الناحية الاستراتيجية .

وكانت سورية بالنسبة اليهم بلد يقل سكانه عن الستة ملايين

نسمة ، وهو رقم لا يتجاوز ربع سكان نيويورك .. والخلاصة ، فانني عندما رجعت الى القاهرة ، وعلى الرغم من ان بايرود وايخلبرغر شعرا بأنني تخليت عنها فقد وافقت حكومتنا على ان تظل خارج حلف بغداد .. وهكذا فقد حصدنا الأسوأ من الجانبين : .. ذلك ان الحلف أصبح ضعيفاً بسبب غيابنا عنه ، بينما استاءت الدول الموقعة على الحلف لأننا تخلينا عنها .. وفي الوقت نفسه كان المصريون يعرفون أن الحلف هو من صنع وزير الخارجية دالس .. وهكذا انصب علينا اللوم من كل جانب .

.. ولكن عبد الناصر وجد في حلف بغداد قاعدة للهجوم على أخصامه من العرب ، وسيما بعد ان انضمت بريطانيا الى اسرائيل وفرنسا في العدوان الثلاثي على السويس تشرين الأول ١٩٥٩ .

الوحدة .. واللعبة

خلال عام ١٩٥٦ ازداد التقارب بين السوريين والسوفيات الى درجة ان سد الثغرة في الجبهة المناوئـــة للسوفيات أصبح مشكلة تواجه عبد الناصر بمثل ما تواجه أخصامه نوري السعيد والملك حسين ... واستشار عبد الناصر أصدقاءه الاميركيين حول التعاون على سد الثغرة في جبهته الشرقية ، في الوقت الذي كان يتشاور فيه مـــع السوفيات على مشكلة سد الثغرة في جبهته الغربية ، التي أصبحت كثيرة الثقوب كالمنخل . وفي ضمن الامكانات التي تتيحها لعبة من طراز لعبتنا ، كنا قادرين على تبادل الأفكار مع ناصر على مشكلة سوريه ، في الوقت الذي كنا نضعف فيه من قبضته على الدول العربية الأخرى . ويجب أن أضيف الى ذلك ان ناصراً لم يبحث معنا في امكانيـــة عمل مشترك ضد سورية ، غير انه كان يعتقد ان من الضروري اطلاعنا على مدى تدهور الأوضاع هناك ، وعلى مدى استغلال السوفيات لهذا التدهور ، وما يستلزم ذلك من امتناع عن القيام بأية محاولة انقلابية ، لأن مثل هذه المحاولة أما أنها ستفشل أو انها ستجعل الموقف أسوأ مما كان من قبل . وقد استجاب

أصدقاء ناصر الأميركيين لطلبه ، مؤكدين له انه بسبب تجارب سابقة أحرقت الاصابع الاميركية في سورية،فليست للاميركيين أية نية بالتدخل في شؤون ذلك البلد، وأضفنا الى ذلك قائلين ان لدينا أنباء من مصادر يوثق بها (وقد جاءتنا من أحد الذين انقلبوا على السوفيات) تفيد ان الروس عازمون على ان يدفعوا أولاً الى الحكم بعناصر موالية لهم ، ثم يثيرون بعد ذلك موقفاً يضطر الحكم الجديد الى دعوتهم لحفظ النظام – في عملية تشبه من جميع الوجوه تلك التي قامت بها حكومة الولايات المتحدة في لبنان فيما بعد .

وكان ناصر يصدق ما كنا ننقله اليه عن النيات السوفياتية ولكنه لم يكن يصدق الأنباء التي كنا ننقلها اليه عن نياتنا .

فقد كانت هناك حركة واسعة من الرواح والمجيء قام بها رجالنا ، وكانت هذه الحركة تثير في نفسه الشكوك : لوي أندرسون الذي كان آنئذ نائباً لوزير الخارجية ، وقبل ذلك سفيراً للولايات المتحدة في ايران عندما انجزت عملية «اجاكس» ، جاء الآن – أي اندرسون – لزيارة انقرة لحضور اجتماع ميثاق بغداد في الظاهر ، ثم المجيء سراً الى بيروت للاجتماع ببعض الأصدقاء السوريين بصفته الشخصية . وقد أعرب دالس ، في بيان رسمي ، عن قلقه من الأوضاع في سورية ، كما ان الرئيس

ايزنهاور أنذر بأن سورية الخاضعة للنفوذ الشيوعي قد تهاجم جاراتها – وهو احتمال سخيف حين يوضع على المحك قوة سورية الحقيقية من الناحية العسكرية ، ويمكن تفسيره فقط بأنه نوع من الموسيقى مصدرها عبد الناصر الذي اعتاد على تلحين مثلها . وكانت هناك تحركات للقوات التركية على الحدود السورية ، كما ان العراقيين والاردنيين عادوا الى سلوكهم السابق وباشروا باستعدادات عسكرية واسعة ... وكان الجو مكهرباً الى درجة أن أبناء العم روزفلت ، كيم وارشي ، زارا بيروت واجتمعا الى سوريين وعراقيين وأردنيين ، فأبرق عبد الحميد غالب ، السفير المصري في بيروت ، الى القاهرة يقول ان الأميركيين يتآمرون على شيء ... ولكن مؤامرتهم هي من أكبر العمليات المكشوفة التي عرفها في حياته ..! وعندما التقيت به عرضاً في ردهة من فندق سان جورج سألني بخبث قائلاً : « عندما يحين موعد انقلابكم ، فهل ستعرضون التذاكر على البيع ..؟! »

لقد كان رد الفعل الأول لعبد الناصر بالنسبة لهذه التحركات الهدوء التام ، لأنه يعرف أنه إذا أقدم على عملية ما بالطريقة التي يعرفها هو فستزيد في عوامل الارتباك في المنطقة وتكون النتيجة ، أن يقطف السوفيات الثمرة الأخيرة . ولناصر عقلية تمكنه من قبول الأشياء حين تكون قيمتها ظاهرية ، لا سيما وانه

شخصياً قد تعرف على عدد كاف من الدبلوماسيين الأميركيين السريين ، وبينهم كيم وارشي روزفلت ، ولذلك لم تساوره الشكوك أمام الملامح السطحية لعملية سرية خرقاء . كانت في الحقيقة غير سرية . ! وقد قال السفير ريموند هير ، الذي حل محل بايرود في القاهرة – قال لعبد الناصر ان حكومتنا يساورها القلق الشديد بخصوص سورية ، ولكنها لا تنوي القيام بأي عمل تخريبي ضدها . كما انني أكدت له شخصياً هذه الحقيقة في وقت لاحق ... وطلب الي رئيس الـ C. I. A. في احدى المرات ان أقول لعبد الناصر عندما أزوره في القاهرة ، اننا لا نخطط لشيء مما يتصوره أو يدور في خلده ، وان من الأفضل بالنسبة اليه أن يهتم بالنشاط التخريبي السوفياتي في سورية لا بالنشاط الأميركي ... وعندما نقلت لعبد الناصر هذه الأقوال بدا لي وكأنه اقتنع قناعة تامة ..؟

وكان شعوري في ذلك الحين اننا وان كنا نتوق الى سورية مستقلة عن عبد الناصر ، فان قلقنا من الاتحاد السوفيتي كان يتيح له – بالنسبة لسورية – فرصة التعاقد معنا على صفقة رابحة : والحقيقة انه على الرغم من اتحاده مع الحياديين الايجابيين ، فان ما كان يعرضه على العالم العربي ، كان أفضل من وجهة نظرنا . فنوري السعيد كان في مركز مكشوف ، والملك

حسين كان يشكو من قلق ربما أدت الوحـــدة الى إزالته ... ولبنان كان مقسماًبنسبة خمسين لخمسين بين المسيحيين والمسلمين، ومن المحتمل أن ينفجر عند أية ضغوط من شأنها أن تقلب الموازين . وقد كنا متفقين مع عبد الناصر على الشعور بالاسى من تلك الأحوال كلها ، لا سيما وأن السوفيات كانوا على وشك أن يجنوا كل الثمرات ...

... وهكذا فان فكرة عقد الصفقة مع عبد الناصر — على سورية — كانت مغرية لكلينا ..!

قطع الطريق على العرب

لا أعتقد أن هناك من يعرف حقيقة ما اعترض هذا المشروع في بادىء الأمر ... ومن المحتمل أن علي أبو نوار رئيس أركان الجيش الأردني الذي عرف آنئذ بناصريته قد قرر القيام ، قبل ذلك ولحسابه ، بحركة انقلابية ضد الملك حسين . ومهما يكن من أمر ، فإن المصريين هم الذين زرعوا عنده هذه الفكرة ، غير ان إسناد الحسين رئاسة الوزارة للنابلسي ، جعل هذه الخطوة غير ضرورية . وعلى كل حال فان أبو نوار خطط وحاول ، وكانت محاولته من أخرق العمليات من هذا النوع ، الى ان دار الكأس على ملك اليونان كونستانتين فقام هو بمحاولته الخرقاء في عام ١٩٦٨ . وقد استطاع الملك حسين، بجد أدنى من إعادة التنظيم ، أن يستعيد ولاء الجيش له ، وأعلن الأحكام العرفية ، وانتظر متلهفاً أن يقوم السوريون بمحاولة ما ، ولكنهم لم يفعلوا ... غير ان الحكومة الأميركية تحركت بأسطولهـــا السادس الى بيروت ، ووضعت نفسها بالنسبة لسورية على نفس المستوى من العلاقات الذي كان ينعم به السوفيات قبل شهر واحد فقط . وهنا اطمأن نوري السعيد ، وبـــدأت المخابرات البريطانية والاميركية تظهر من الاشراق ما أوحى اليه بأن الغليان ضده

سيهبط الى معدلات يستطيع السيطرة عليها . أما لبنان الذي كان على رأسه كميل شمعون ، وهو أكثر الرؤساء العرب عداء لعبد الناصر ، فقد انتهى الى تدابير أمن أوقفت نشاط الناصريين والشيوعيين ، ومنعت بيروت عن أن تكون مركزاً رئيسياً للتحركات ضد نوري السعيد والملك حسين وغيرها . وفي نهاية عام ١٩٥٧ كانت مصر لا تزال هي العضو الوحيد في جمهورية ناصر المتحدة ..!

غير ان العضو الوحيد لا يصنع الوحدة .. ولما كانت الوحدة لا تزال جزءاً أساسياً من استراتيجية عبد الناصر ، فلم يكن له مفر من أن يبدأ التسلق على الجبل الذي ينتهي به مـــع العالم العربي الى الشكل الذي كان يريد . والقرار الوحيد الذي كان يمكن به كسر الأزمة السورية — التي كان يرى فيها عبد الناصر نواة كل الأزمات — هو ان يتخلى عن أساليب عمله الرئيسية : فقد كان قبل الوحدة مع سورية يحاول انتزاع السلطات أينما وجدها ، ولكنه كان يتجنب المسؤوليات كما يتجنب الأمراض المعدية ... ولذلك ابتدأ من السيطرة عـــلى سياسة سورية الخارجية ، ثم تحول الى السيطرة على سياستها الداخلية (التي تصنع هي بدورها السياسة الخارجية) مع كل متاعبها الادارية . وفي كانون الثاني ١٩٥٨ ، وافق عبد الناصر على اندماج سورية ومصر في دولة واحدة هي الجمهورية العربية المتحدة .. وهكذا أصبح رئيساً لا لمصر فحسب ، بل لبلد لم يسبق ان وطأته قدماه من قبل ...

ولو كان علي أن أكتب رواية عن هذا الفصل من الكوميديا – المأساة – الوحدة – في لعبتنا مع عبد الناصر ، لأعدت ما كتبه (مالكولم كي) في كتابه « حرب العرب الباردة ١٩٥٨ – ١٩٦٤ » – الكتاب المذكور يورد بطريقة لاذعة تفاصيل الحوار الذي دار بين الثوريين أنفسهم ، أي بين عبد الناصر وحزب البعث على موضوع الوحدة ، أكثره مأخوذ من محاضر جلسات مباحثات الوحدة بين سورية والعراق ومصر في عام ١٩٦٣ – ... وكل ما أريد إضافته الى هذا الكتاب : انه مهما كانت نظرة الانسان الى مداخل هذه التجربة ومخارجها ، فان الدرس الذي حصل عليه عبد الناصر من الوحدة يتلخص بما يلي : استجب لكل النداءات والحوافز التي تؤدي للضغط على القادة العرب الآخرين بحيث تعزلهم عن أية صفقة يحتمل أن يقدموا على عقدها مع الدول الكبرى ، ولكن هذه الاستجابة عن طريق محطة القاهرة فقط ، أي عن طريق آخر لا يورطك في اتصالات شخصية مع البلدان المستهدفة . وإذا أراد المتعصبون من هذه البلدان أن يوفروا لك أفضل الأدوات للعمليات التي يمكن بناؤها على الحوافز أو النداءات المشار اليها • فبها ونعمت .. !

وافقنا على صفقة السلاح وكتبنا له مسودة البيان !

في ١٦ تموز ١٩٥٥ أنهيت دورة سنتين في القاهرة، وشخصت متباطئاً الى وطني، حيث قضيت شهراً كاملاً على الطريق. ولدى وصولي كانت هناك في انتظاري رسائل من بايرود وعبد الناصر تدعوني الى القيام بما استطيع عمله لحل عقدة السلاح الذي تطالب به مصر. كما كانت هناك صورة عن كتابين متبادلين بين جيم ألن، الذي أعمل برئاسته، وهربرت هوفر (الذي كان آنئذ نائباً لوزير الخارجية). وقد طلب الأول إعارتي لوزارة الخارجية، ولفترة غير محدودة، لانضم الى فريق أطلق عليه اسم « لجنة التخطيط السياسي للشرق الأوسط ». وكان الهدف الأساسي من تأليف هذه اللجنة استنباط الطرق التي يمكن بها الاستفادة من الصداقة النامية التي قامت بيننا وبين عبد الناصر.

وكان العمل الأول الذي قمت به في واشنطون هو ان أبحث موضوع صفقة السلاح مع الرجل الذي حل محل هانك بايرود كمساعد لوزير الخارجية لشؤون أفريقيا والشرق الأوسط، وهو

جورج ألن . ولم يكن جورج يعرف عن هذا أكثر من انه جمد لأسباب ادارية، وطلب الي ان آخذ قسطاً من الراحة في مكتب مجاور ، وان اطلع خلال ذلك على الرسائل المتبادلة في هذا الشأن بين القاهرة وواشنطون خلال الشهر الذي كنت خلاله بعيداً عن العمل . وقد فعلت ما طلب الي ، وكنت أتابع الرسائل جيئة وذهاباً ، كما يتابع لاعب التينس الكرة في لعبة ناشطة . وسرعان ما ظهر لي ان المشروع كله قد غاص في الاجراءات البيروقراطية ، لا أكثر من ذلك ولا أقل . واشتمل بعض الملفات الاضافية على مناقشات حول ما اذا عبد الناصر يمكن ان يحصل على المعونة العسكرية التي يطالب بها دون تأكيدات من جانبه بأنه لن يستخدم هذه المعونة ضد اسرائيل. ولكن هذه المناقشات فقدت موضوعيتها عندما فوضني سفير مصر في اليوم التالي بأن أخبر ألن ان في وسعنا ان نخفف الضغط على عبد الناصر عن طريق تزويده بمواد استعراضية لا تتجاوز قيمتها المليونين من الدولارات ، كخوذ لمّاعة ، ومسدسات في قراب جميلة ، وما أشبه ذلك ، مما يضفي على الجيش الهيبة والاحترام . ومهما كان من أمر المشاكل الادارية (التي لا أزال أجهلها حتى الآن) ، فقد اعترضت هذه أيضاً سبيل المليوني دولار للمواد الاستعراضية ، وكان ان انتهت هذه بمثل ما انتهت تلك ...

غير ان الملف اشتمل على موضوع ملزم ، ولو انه لم يكن

دراماتيكياً .. فقد ورد في برقية من بايرود إن من الأفضل ان نمعن التفكير في احتمال مبادرة الروس الى تقديم مساعدات عسكرية لمصر (كان جورج ألن يصر على ان مساعدة السوفيات العسكرية ليست ذات موضوع) .. وتنبأ بأننا اذا لم نقدم معونة ذات مبلغ رمزي على الأقل، فان ناصر سيقبل عرضاً سوفياتياً، وان تقريراً من الـ C I A يؤكد ان هذا العرض قد قدم فعلاً . ومضى بايرود يقول ان صفقة كهذه اذا تمت فان مركز السوفيات في المنطقة سيستمر في التصاعد . وقد أحدثت هذه المعلومات قلقاً في لجنتي، « لجنة التخطيط السياسي للشرق الأوسط » . ومع ذلك لم يتخذ أي تدبير . وفي منتصف ايلول تلقى كيرميت روزفلت رسالة شخصية من عبد الناصر قال فيها انه على وشك توقيع اتفاقية مع السوفيات، وانه اذا كان يريد ان يثنيه عن عقد هذه الاتفاقية فهو يرحب به في القاهرة .. وهكذا اتجهت أنا وروزفلت الى القاهرة في صباح اليوم التالي .

استقبلنا في المطار واحد من أعوان عبد الناصر الذي رافقنا الى شقته في الطابق الأعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة . وكان ناصر على غاية من السرور، وكان ينتظر ان يرتج على روزفلت عندما يتقدم اليه بحججه الدامغة، ولكن روزفلت كان هو الذي أدهش عبد الناصر، لأنه عوضاً عن ان يثنيه عن قبول صفقة السلاح السوفياتية، قال له : ان الصفقة اذا كانت بهذه

الضخامة ، فقد تزعج بعض الناس ، ولكنها على العموم ستجعل منك بطلاً عظيماً ، فلماذا لا تستفيد من هذه الشعبية المفاجئة لتقوم بأعمال من مستوى رجل دولة ؟! ولن يقلل من مكاسبك أن تعلن ، على سبيل المثال : « لقد حصلنا على هذه الأسلحة لأغراض دفاعية فقط ، واذا أراد الاسرائيليون ان ينضموا الينا في مجهود مشترك لقيام سلم دائم في المنطقة فسيجدونني على استعداد لذلك » .. او أن تقول شيئاً آخر ، يشبه هذا الكلام ..

وقفز عبد الناصر ابتهاجاً بهذا الاقتراح قائلاً : انها فكرة حسنة . وتابعنا مناقشة هذه الفكرة حتى منتصف الليل : فناصر سيدرج إعلانه عن الأسلحة السوفياتية في بيان ضخم ، فيهتف له لا التقدميون في مصر فحسب ، بل العناصر المحافظة أيضاً ، ثم يتبع ذلك بحملة حياد دولية يرضي بها جميع الأطراف ، بينما يستمر داخلياً في اصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية — عن طريق المساعدات الاميركية . وهكذا فقد كان هناك جميع أنواع الإحتمالات .. وكان على عبد الناصر ان يلقي خطاباً بعد يومين في متخرجي مدرسة الطيران، وكان من الممكن ان يضمن خطابه اعلاناً للنبأ . واتفقنا على ان أكتب مسودة الكلمة او المقطع الذي سيتضمنه خطاب عبد الناصر ، على ان يقوم هو وروزفلت بانشاء هذا المقطع وتوضيبه في الليلة التالية .

وفي الصباح ، كانت جماعة من المساعدين تساهم معنا في إعداد النص باستثناء السفير بايرود الذي لم يكن قد علم بأننا في القاهرة . وخلال النهار وصل موكب من الزوار إلى فندقنا لابداء آرائهم فيما يجب او لا يجب إدراجه في البيان : مصطفى أمين المشرف على جريدة « أخبار اليوم » ، وحسنين هيكل أحد أمناء عبد الناصر ، وحسن التهامي المساعد الوطني الأول لعبد الناصر ، وجيم ايخلبرغر من السفارة (وكان قد علم بوصولنا من حسنين هيكل ولكنه لم يذكر ذلك لبايرود) ، وأحمد حسين السفير المصري في واشنطون ، وواحد او اثنان آخران تألف منهم جميعاً عدد ضخم . ويبدو ان الجميع كانوا يعرفون نبأ صفقة السلاح التي عقدت مع السوفيات . وعلى الرغم من كل الجهود المشتركة ، فقد كانت المسودة قصيرة ، لا تزيد على بيان بسيط اشتمل على النقطة التي أردنا إيضاحها ، والتي ما كانت لتنال من الأثر الدراماتيكي الذي كان ناصر يرجو أن يعكسه على الجماهير دون أن يجرح مشاعر أحد .

وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي ، كنت مع كيم روزفلت في شقة عبد الناصر في المبنى الخاص بمقر قيادة مجلس الثورة ، وكانت السفارة البريطانية على الجانب المقابل من نهر النيل . ولم يكن هناك الكثير مما يستدعي المناقشة . وقد رضي ناصر عن المسودة ، وقال انه قادر على أن يضمنها خطابه بسهولة . . وكان التعديل الوحيد أنه لا يستطيع أن

يذكر صراحة كلمة « الصلح مع اسرائيل » وسيذكر بدلاً منها « تخفيف التوتر بين العرب واسرائيل » – وقد رضي روزفلت بذلك واعتبره خطوة كبيرة .

وأخرج عبـد الناصر زجاجة من السكاتش ويسكي الذي يحتفظ به عادة للزوار الممتازين . وبينما كان يفعل ذلك رن جرس الهاتف ليقول الضابط في الطابق الأدنى ان السر هامفري تريفليون السفير البريطاني يطالب بموعد مستعجل .

وهنا قال عبد الناصر : ماذا يحتمل أنه يريـــد ؟ فأجاب روزفلت : من الواضح انه سيحدثك عن صفقة السلاح السوفياتية فقال عبد الناصر : ولكنها لا تزال سراً فكيف عرف بها ؟ ! فرد روزفلت قائلاً :

– جمال ... حتى ولو أن جماعتك حافظوا على السر ، فان السوفيات سينشرونه ... إنه ليس من مصلحتهم أن يدعوا الصفقة في قيد الكتمان .

فوافق عبد الناصر على ذلك ، بينما كنا ننظر الى الأنوار تشع على ساحة السفارة البريطانية عبر النهر .. ثم جلسنا نراقب السيارة وهي تخرج الى الشارع الرئيسي ، وتشق طريقها عابرة الجسر الى الشارع الأسفل . وفي هذه الفترة كنا نتناقش في الموقف الذي يجب أن يتخذه عبد الناصر من السفير البريطاني

الذي كان كسفيرنا بايرود – غير عارف بحضورنا للقاهرة ... ذلك ان وزير الخارجية دالاس ، زيادة منه في الاحتراز ، لم يخبر الأعضاء الباقين في وزارة الخارجية ، وكذلك لم يخبر البريطانيين ولا حتى سفيره بالقاهرة عن دعوة ناصر لنا ، ولا عن أننا ذهبنا لإقناعه بالإقدام على خطوة تتميز بالجرأة وتؤدي الى نمو البلاد الاقتصادي .. ولكن ماذا يقول ناصر للسفير البريطاني ؟

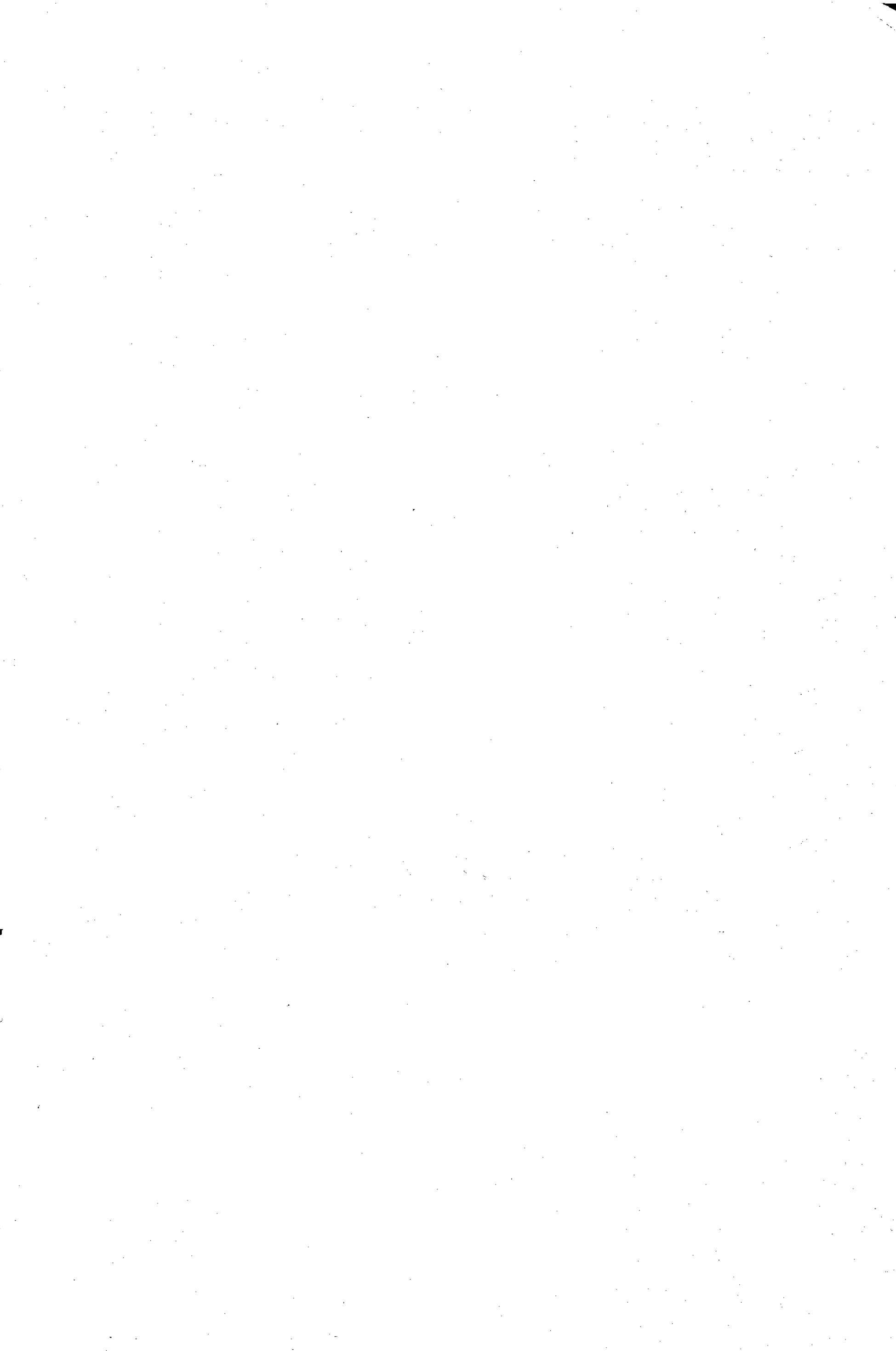
قال روزفلت : لكي تستطيع تأخير الموضوع حتى مساء غد قل له إن الأسلحة قادمة من تشيكوسلوفاكيا ، ولن يستغرب ذلك لأن التشيك هم أيضاً مصدر رئيسي لتسليح اسرائيل .

وهكذا نزل عبد الناصر لينقل اليه ان الأسلحة هي من براغ ، الأمر الذي لم يفهم منه السر هامفرى شيئاً ، بل غادر الاجتماع وهو يعتقد ان ناصر قد قبل صفقة السلاح السوفياتية . ولم يكن في وسعنا أن نقابل السر هامفري ، وأن نصحح معلوماته حول هذه النقطة إلا بعد ان كان قد أبرق إلى لندن ، وسمحت وزارة الخارجية البريطانية باذاعة النبأ عن طريق الـ B. B. C.

لم يستمر اجتماع ناصر – تريفليون أكثر من خمس دقائق ... وجرت بعد ذلك مراجعة مسودة الخطاب الذي سيلقيه في متخرجي الطيران ... وعندها دخل علينا عبد الحكيم عامر

وزكريا محي الدين ليدعوانا لتناول طعام العشاء عند السفير أحمد حسين . وكانت ساعة من المرح ، تعرضت خلالها لمضايقات صديقي زكريا محي الدين الذي لم يعرف إلا منذ ثوان أنني في القاهرة . وكنا نتبادل النكات حول ما كان يمكن أن تتحول اليه ملامح السفير البريطاني لو أن روزفلت أو أنا ، دخلت قاطعاً عليه خلوتـه مع عبد الناصر ، وبيدي كأس الوسكي ، لأقول له :

ــ عفواً جمال !.. لقد انتهت الصودا ، فمن أين نحصل على المزيد منها . . ؟ !



الفهرس